حكايات برسم العولمة

حكايات برسم العولمة (قصص قصيرة وحكايات شعبيّة وأشعار)

جميل قموه (كاتب أردني)

ma.gammoh@gmail.com

الطبعة العربية الأولى 2022

© حقوق الطبع محفوظة بموجب عقد 2022.

الآن ناشرون وموزعون

المدير العام: د. باسم الزعبي

الأردن، عمّان، شارع الملكة رانيا، بجانب صحيفة «الرأي»، مجمع المفلح التجاري(87)، ط1.

هاتف: 797162720، 65620722 (962+)

alaan.publish@gmail.com

www.alaanpublish.com

المراجعة اللغوية: هبة شريقي

تصميم الغلاف: بسام حمدان

All rights reserved. No part of this book may be reproduced، stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطّي مسبق من الناشر.

ISBN: 978-9923-13-484-9

المملكة الأردنية الهاشمية

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية

(1441/ 3/ 2022)

306

قموه، جميل برهم طافش

حكايات برسم العولمة، جميل برهم طافش قموه. عمان: الآن ناشرون وموزعون، 2022

(104) ص

ر. إ: 1441/ 3/ 2022

الواصفات: الأعمال الأدبية/ / الروايات الأدبية/ / الشعر العربي/ / الحكايات الشعبية/ / الأدب العربي

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى

جميل قموه

حكايات برسم العولمة

قصص قصيرة وحكايات شعبيّة وأشعار

مقدمة

قد نحلم ولا نتذكر ما حلمنا به، نحاول معرفة ما الذي سرّنا أو أرعبنا في هذا الحلم ثمّ ننسى الحلم مع أحداث النهار. نسمع قصة ونرغب في إعادة سردها لأصدقائنا فلا نتذكر إلّا القليل منها ويختفي جوهر الحكاية.

نحب -نحن البشر- مزج الخيال بالحقيقة لنُبطئ قسوة المواجهة ونختلق مزيداً من العبارات الوهميّة لتكتمل الرواية في عقل المستمع إلينا الذي -بدوره- ينهي الرواية كما تروق له فيعيد قصَّها مرة أخرى حسب النهاية التي اختارها بنفسه. هكذا نختار أدوارنا في الحياة، كلٌّ منّا يتقمص شخصيّة من رواية أو قصة معينة يكون بطلها ثمّ يبدأ بتغيير حياة تلك الشخصيّة وفقًا لموقفه من حياته الواقعيّة تارةً ضعيفة وبائسة وتارةً قويّة وشجاعة وتارةً أخرى مستهترة أو حكيمة... إلخ، فنصنع في النهاية قصة جديدة لحياتنا تكون في الواقع حصيلة خبرتنا وتجربتنا على مرّ السنين وتصبح جزءاً من تاريخنا وإرثنا.

حكايات من حياتنا اليوميّة وتراثنا وتراث الآخرين، نستلهم العِبر والمعاني من تجارب حقيقيّة أو ذات دلالات قد تمنحنا رؤية أو إشارة لما يجري في عالمنا الحاضر، هكذا كانت بداية هذا الكتاب، ثمّ استبحر العقل ليضيف مزيداً من مرآة الحياة بهفواتها وآلامها وفرحها وعنادها، من شعر ونثر وقصص جمع فيها أشكال الخيال وصور الأحلام وطرائفَ من

واقع الناس وبوح فؤاد القلب بحنينه إلى ما مضى ولهفته إلى ما تصبو إليه النفس، لعلّ مَن يقرأ يجد المسرّة والحكمة والعظة أو يجد ما قد يحمل الإنسان على التفكير في أسرار الطبيعة وصنيع البشريّة.

وقد كان هذا آخر ما سمحت به قوة الجسد بأن يعطي، مستغِلّاً كلّ قطرة من قطرات الحياة ليروي فيها ظمأنا إلى بعض الكلمات والسطور التي نرغب في أن نعبر بها الأزمان والعصور حتى إن لم نصل إلى إتمام ما نريد البوح به أو ما قد يعجز القلب عن الكشف عنه.

جميل قموه

لقد تغير العالم

لقد تغيّر العالم! هذا ما نقوله ونتداوله أحيانًا في جلساتنا المختلفة، وعندما يتغيّر العالم بالنسبة إلينا، يتغيّر كما لو كنّا نشاهد فلمًا سينمائيًا نعيش مع أحداثه في اللحظة نفسها، ثمّ ننغمس في حياتنا اليوميّة. نقول هذه العبارة ظنًّا منّا أنّنا ندرك السرّ الكامن في هذا التغيّر، وأنّنا نعيشه ونلمسه، لكنّ الحقيقة أنّنا نراه حولنا، يمرّ من أمامنا ولا يصيبنا، ولا يدخل في أعماقنا.

ظننت أنّني أدرك وأستوعب تمامًا معنى أنّ لكلّ شيء بداية ونهاية، وأنّني أستوعب معنى الليل والنهار، وأنّني قادرة على لمس نسمات الربيع وردع هبات الخريف، وأنّني أعي مذاق النوم من اليقظة، ونكهة العمل من الراحة، وأنّني أدرك جيداً عذابات المتألّمين وهناء الفرِحين، وأنّني على يقين بإيماني بدورة الحياة في الطبيعة بما فيها نحن البشر، وأنّني أستوعب معنى أنّ لكلٍّ منّا دورة حياته الخاصة سواء طالت أم قصرت فنتائجها واحدة كجزء ثابت من الطبيعة.

لكنّ العالم قد تغيّر، لم أعد أرى القمر مضيئًا، ولا النجوم لامعة، ولا السماء زرقاء. لم أعد أعشق الغروب ولم أعد أنتظر الشروق. لم أعد أراقب تساقط الثلج. لم أعد أسترق السمع إلى هطول المطر. لم أكن

أدرك أنّ يومًا واحداً في دورة الحياة قادرٌ على أن يغيّر العالم من حولنا، بل قادر على أن يغيّرنا.

نعم، لقد تغيّر العالم، بل تغيّرت أنا! كيف يكون ذلك وأنا على وعي كامل للحقائق كلّها وإدراك كامل للوقائع كلّها!

كنّا نجلس ظهيرة كلّ يوم من أيام الشتاء بالقرب من النافذة المطلة على الشارع مستغلّين سطوع ضوء الشمس داخل المنزل في هذا الوقت ليتمتّع والدي ببعض الدفء الطبيعيّ الذي يحفّزه على مغادرة سرير المرض الذي كان قد أنهك جسده وقد استفحل ليصل إلى أقصاه، وكنت قد قرّرت أن أسبق الزمن لمساعدة والدي في مراجعة مادة كتابه الأخير هذا؛ لنتمكّن من طباعته فنبدأ رحلة القراءة والمناقشة لكلّ موضوع في هذا الكتاب مدّة ساعة واحدة يوميًّا.

وكانت هذه الساعة التي نقضيها في مراجعة مادة الكتاب تحمل الكثير من الصمت الذي يغلّف بركان الروح الهائجة. أدهشني هذا الكثير من العزم، الكثير من الحماس والكثير من الشغف، مع كلّ نقاش أو اختلاف في الرأي حول فقرة أو عبارة ما، فأفوز مرة ولا أفوز مرات عديدة، هو ثابت في قناعاته وواثق في رسالته التي يرغب في إيصالها، ولم يكن أبداً إلّا كذلك. لم يكن مجرّد كتاب، بل كانت رحلةً تمنّيت أنّها افتراضيّة، لعلّي أستطيع إعادة تغيير واقع الحال الذي أعلم أنّه قد وصل إلى نهاية المطاف، لكنّه الأمل يدعنا نسبح في خيالنا وننكر ما نشاهده بأعيننا

ونتسلّح بأسلحة الصبر ونطوي الألم فنعيش جزءاً من أيامنا واقعًا افتراضيًّا.

عندما يكون الشغف أكبر من سكرات الموت، وعندما تحمل الروح جسدها الضعيف إيمانًا بأنّ الكلمة حيّة لا تموت، بأنّ فناء الجسد لا يفني الوجود وأنّ رسالتك ممتدّة عبر الزمن؛ فتسعى إلى إيصال رؤياك وفكرك وماضيك وتاريخك وأمنياتك وأحلامك إلى أجيال من بعدك، لتكون لهم مفتاحًا يشرق في أبواب حياتهم المكتنزة بثقافات وعادات وحداثات عصرهم. ذلك ما شغل هذا الكاتب، وبشغف كبير جاهد وحارب ليبقي من تجاربه ومن مكنون فكره إرثًا مكتوبًا ومرويًّا قدر المستطاع، رغم خيانة الزمن وبقاء الكثير ممّا رغب في نقله وتدوينه محبوسًا في عقله وفؤاده.

لقد تغيّر العالم، لكنّ العالم لم يتغيّر، فقد تغيّرت أنا. إنّها الأوقات الحاسمة التي تجعلنا نقف في مكان ما على مفترق طريق حياتنا، نزيل غشاء الوهم عن أعيننا ونتلمّس فؤادنا ثمّ نضع على شفتينا بسمة حيرى.

في رثاء والدي أقول:

لأنّني أشبهك..

روحي تلتقي بروحك.. وأنفاسي تغادر إن غادرت.

فمن أين يأتيني العزاء وقد فارقت حياتي؟

أعلم بأنّك كنت ترغب بالبقاء..

ولم تكن يومًا من الذين يهربون..

فقد اعتدت أن تناضل في دنياك ببسالة وشرف وشجاعة..

وعبرت موجاتٍ من القهر والألم، ورغم ذلك زيّنتها لنا بسيف الصبر والعزيمة وشعلة العلم والمعرفة لتجتاز الصعاب..

وقد سموتَ بفكرك وروحك عن جميع الصغائر..

أمّا وقد فجأك جسدك بوهنه وأعلن لك عن ضعفه

فبادرت إلى تهدئته وطبطبت على ذراعه ليقوى..

ويرضى أن يكون موضعًا مباحًا لكلّ إبرة ومشرط وسائل حارق

لعلّه ينجح بعقد صفقة النجاة

وينجو من واقع أليم ومصير محتوم..

ناضلت كما هي طبيعتك، ونزعت اليأس من روحك..

وأمددت جسدك بالشجاعة ليقوى على المستحيل..

إلّا أنّ ساعة الرحيل أبت إلّا أن تطرق الباب.

واعتذر منك جسدك، فقد قاوم بضراوة أنيابًا حادة كانت قد أنهكته وأعضاءه كلّها؛ فلم يعد في استطاعته اجتياز حربه ونفث آخر ما تبقى من أنفاسه..

وحزنت لأنك ترغب في البقاء..

لكنّك تعلم أيضًا أنّ أوان الرحيل قد حان

ولا تملك من حكمه شيئًا..

وقد تسمّرت الدموع في مقلتيك..
فودّعت عالمك وأودعت جسدك بسلام.
فأبى قلبك إلّا أن ينبض لك عزف العزة والكرامة
من ساعات الفجر الأولى إلى أن استأذنت شمس الحياة بالغروب
فعزف نبضة أخيرة رافعًا تحيّة الإجلال
معلِنًا الوداع وداعًا تامّاً خاشعًا.
وها أنت الآن تحت التراب، لم ترغب في الرحيل عنّا..
وأعلم أنّه يعز عليك الرحيل..
فغادرتنا صامتًا دون سؤال أو رجاء..
شقيّة أنا، وشقائي في حنيني إلى روحك ووجودك..
وحنيني إلى كلّ نظرة ولفتة وضحكة.
ونحن نعيد قراءة السطور التي خطّتها أناملك، نتأمل ونتحاور..
تعِب أنت! أراك متعبًا وصامتًا دون شكوى!
أراك تجهد لتكمل ما أتيح لك من زمن..
وما تبقّى من مشوار الحياة لتختم السطر الأخير.
سأسمح لروحي بأن تحزن، وقلبي بأن يتألّم
لعلّي أشفى من ألم الحنين والشوق
فإنّ روحَك روحي الساكنة داخل أعماقي
وأحلامك أحلامي

وحياتك جوهر حياتي..
ولأنّني أشبهك
سأنهض
وأنفض غبار الموت عن جسدك
وأبعث روحك في أنفاسي..
فتحيا خواطرك وكتاباتك..
ويبقى قلمك شعلة في السماء
هذا عهدي لك..
لأنّني أشبهك.

ميسلون قموه

ديك القرية

كان أحد الفلاحين في إحدى القرى يملك ديكـًا بين عدة دجاجات، وكان الديك جميلاً يشبه الطاووس بريشه الطويل الملوَّن اللامع تحت أشعّة الشمس، لم يكن ديكـًا عاديّـًا، كان يعدّ نفسه مسؤولاً عن جميع دجاجات الفلاح؛ فيمنع اقتراب ديك آخر منها، وكان يصيح عند الفجر كأنّه ينادي صاحبه: هيّا إلى العمل فقد بزغ فجر اليوم الجديد، أي أنّه كان يقدّم خدمة عظيمة لصاحبه حسب اعتقاده ممّا جعله يشعر بالغرور مما جعله يشعر بالغرور، فيسير مختالا بين الدجاج والديكة، وينظر بتعال كبير كأنه يقول لهم بسخرية وتحد: دعوني أرى من منكم يستطيع فعل ذلك؟ خصوصا وأن صوت صياحه كان صاخبـًا ويطغى على أي صوت حوله.

مرت الأيام وأصبح صاحب الديك في حاجة إلى بعض المال وفكر في بيع الديك ليقضي حاجته؛ فحمل الديك معه وربطه من قدميه وذهب به إلى سوق الجمعة؛ فاستغرب الديك ذلك وقال في نفسه: «أنا أقدّم العديد من الخدمات ولا أعرف لماذا يبيعني صاحبي وأنا أصيح كلّ صباح لأبلغ أهل القرية بأنّ فجر اليوم التالي قد لاح فأستنهض سكان القرية ليقوموا إلى أعمالهم!». تمّ بيع الديك إلى فلاح آخر من فلاحي القرية، وعند عودة الفلاح الى قريته مصطحبا معه الديك، تفاجأ الديك بسماع أصوات عدد من الديكة تصيح كما يصيح، فسأل صاحبه في استغراب: «هل في

هذه القرية ديكة كثيرة تقوم بما أقوم به أنا؟»، فقال له: «نعم، يوجد لدينا عدد كبير منها».

عندها انطفأ غرور الديك ولم يعد يشعر بالتعالي على غيره من الدجاج والديكة، كفانا الله شر الغرور.

أفعى الكوبرى

عند احتلال شركة الهند الشرقيّة الهند، اشتكى أهالي إحدى المدن من تزايد أعداد أفاعي الكوبرى فيها وخاف أهل القرية من هذا التزايد في أعدادها، فأرسلت الشركة أحد المندوبين ليعالج الموضوع. وصل إلى المدينة المعنيّة ووجد العديد من أفاعي الكوبرى تجوب شوارع المدينة، فأطلق حملة للقضاء عليها من خلال إعلانه عن دفع مبلغ من المال لكل شخص يحضر إحداها. فبدأ الناس يصطادون الأفاعي وينالون مقابل كلّ أفعى مبلغًا ماليًا، إلى أن بدأ يقلّ عدد الأفاعي في المدينة حتى كادت أن تنقرض. لكنّ المفاجأة كانت أنّها ظهرت في الشوارع من جديد وبكثرة تفوق المرة الأولى، عندها أرسل مندوب الشركة شخصًا ليتحقّق من الأمر ويبحث عن السبب وراء ظهورها من جديد بهذه الكثافة، وقد سأل أهل المدينة عن ذلك فقادوه إلى عدد من المزارع التي بات الناس يربّون الأفاعي فيها طمعًا بالمال، فأوقف الدفع لكلّ مَن يحضر أفعى.

لا تعالج الخطأ بخطأ أفدح منه.

أبي الحرامي

كان أبي يسرق، كان لصّـًا! ومع ذلك كان محسوداً، بل كان مبجَّلاً أيضـًا! لم يكن يسرق الناس أو الوطن، لم ينهب ثرواته ومقدراته كما يفعلون اليوم، بل كان يحتال على الزمن ليعمل ويشتغل وينتج كما يفعل صاحب الدجاج مع دجاجه، يضيء الأنوار الساطعة ليلاً ليوهم دجاجه أنّه في نهار اليوم الثاني وعليه أن يبيض.

لم يكن أبي يمارس هواية السرقة بدافع الرغبة أو الطمع، بل كان يكدّ ويتعب، إذ كانت ساعات اليوم الأربع والعشرون فقط تضيق عليه، إذ لا تكفي طموحاته لينهي عمله اليوميّ. كان يعتدي على اليوم التالي ليكفي متطلبات عمله وينجز ما عليه؛ فيرفع ساعات عمله اليوميّ إلى ستّ وعشرين ساعة وأكثر! وقناعته أنّ مَن يشرع باب داره للضيوف والمحتاجين لا تكفيه أربع وعشرون ساعة عمل فقط في اليوم.

آه، أنا آسف يا أبي، حاشاك من السرقة المجَرمة قانونيّـًا اليوم، إذ كنت تستلف ساعة أو ساعتين من يوم لم يدخل في حسابات يومك لتقنع نفسك بأنّك تنتمي إلى أناس في حاجة إليك.

شغلت أبي زراعةُ الحبوب والعناية بالكروم وتربية المواشي. كان فلاحـًا يعمل بأدوات بدائيّة ويشرف على العمال وجمع المحاصيل، لا تكفيه لذلك أربع وعشرون ساعة! لهذه الأسباب كان رحيلك مبكراً عن

الدنيا، لم تبع الناس وطنيّة وانتماء كما يبيعونها اليوم في سوق النخاسة. ألف رحمة على روحك التي رقدت مطمئنّة بعد كدحك وكفاحك وعرق جبينك الذي اشتهى أن يرى ثمرة جهودك. لم تعرف التهاون ولم ترض بالهوان ولسان حالك يقول: ولا فخر.

تعلّم بنو قومي من الآباء والأجداد الفلاحين معنى الانتماء. رحلت عن الدنيا في عزّ شبابك، لم ترحم نفسك ولم ترحم بيتك وأطفالك.

يثرثرون اليوم عن الهويّة والانتماء؛ فنسمع ضجيجًا ولا نرى طحنًا، ويا لكثرة مَن يستجيبون لهذه الجعجعة! لقد كنت منتميًا حتى النخاع واشتراكيًّا دون ماركسيه وكريمًا حد الثمالة ورجل أعمال، لكنّهم يسمّونك «فلاحًا» همّه العمل والعمال والأرض، فكان عليك إطعام مَن يعملون معك وبمعيّتك وأهلك وحيّك الذي عشت فيه، كلّهم سواء في مسؤوليّتك.

ألف رحمة لك ولأمثالك من الوطنيّين والمنتمين إلى الروح الإنسانيّة.

نجاح

النجاح في الحياة مهمة ليست صعبة. نجاح المشاريع والمؤسسات يكمن في حسن إدارتها. العقول الصغيرة تتعب صاحبَها، والفشل ينتجه الفاشل.

القيادةُ أن تنجح في أن تقود، فالسيطرة والتحكم لا يعنيان أنّ القيادة صحيحة. قد تنجح الأسود أو حتى الفئران في السيطرة على قطار، لكنّها تعجز عن قيادته. المسيطرون كثيرون، لكنّ القادة نادرون.

نكتة الحياة

عندما تستيقظ صباحًا، فكِّرْ: كم هي ميزة ثمينة أن تكون على قيد الحياة، أن تتنفس، تفكر، تستمتع وتحب وفقًا لـ«ماركوس أوريليوس».

فعمر الإنسان رمشة عين عبر الزمن، تتناقص كلّما تقدّمنا في العمر إلى أن تتلاشى. قبل التلاشي يفقد الإنسان إحساسه بالحياة كونه أنهى دورته فيها؛ فتصبح الحياة نكتة باردة. يبقى السؤال: مَن يضحك على النكتة؟

مَن يستطيع قهر الزمن وإيقاف عدّاده؟

كذب مؤدلج

يفتقد العديد من الناس إلى المصداقيّة في أحاديثهم وتعاملاتهم، يحتاج هؤلاء إلى صحوة ضمير. الإنسان ظاهراتيّ بالشفافيّة وتاريخيّ بالمرجعيّة، يرى في نفسه وجاهة لا تُنافَس، ناقم إلى درجة الشماتة، المبررات أفضل الحلول لديه، يعيش حالة من الإنكار التاريخيّ للأخطاء والخطايا، الاعتذار بالنسبة إليه انكسار، والمعلومة عجينة يشكّلها كما يشاء، في تاريخه إرث للدم سال حتى بين الحنايا.

ظهور أفكار وهرطقات يبتلعها دون تمحيص كما تبتلع الأفعى الخروف، ويدافع عن الحالة بقوله إنّها عرضيّة، وما أكثرها! لذلك فشل المفكرون وأهل العلم (الرازي، النيرزيّ، الحلّاج، البيرونيّ، الكنديّ، إخوان الصفا) وغيرهم الكثير، فشلوا شهوداً للحريّة والإنسانيّة والانتقال من الماضي إلى الحاضر.

كيف زُرِعَت هذه الذهنيّة والعقليّة وعاشت في الأذهان عبر التاريخ؟ هل الأمر من المطلق؟

المجاملة نوع من النفاق الأحمق، وتغليب الظاهر على الباطن. إنّها نوع من الكذب المؤدلَج.

أكرم أباك

الإنسان كتلة مشاعر وأحاسيس. حدث صدام بين والد وابنه مساء يوم أغبر، نتج عنه أن وجّه الابن كلاما حادا ومسيئًا لوالده في دفاعه عن رغباته واعتراضه على معيشته. ولم يكن الابن يرغب في ذلك، وقد ذهب إلى النوم وألم الشجار يزعزعه، وقال في نفسه: «أترك الأمر إلى نهار الغد، لعلّه يخفف ألمي وألم والدي نتيجة سوء التفاهم». في اليوم التالي ذهب الابن إلى عمله ومشاعر القلق بادية عليه. وصل إلى مكتبه وأحضر ورقة وقلمًا وكتب رسالة قصيرة إلى والده قال فيها: «إنّ باطن قدمك أنعم من ظاهرها، فهل تسمح لي بأن أكتشف ذلك بلساني؟»، احتار الوالد بما يرمي إليه ابنه، وعندما عاد الابن إلى المنزل طلب إلى والده أن يطبّق اكتشافه، وعلى والده أن يظهر باطن قدمه، ففعل ذلك، لكن بحذر، وطلب الابن من أبيه أن يدعه يتحسّس باطن قدمه وظهرها بلسانه، فسالت دمعة الوالد ومنعه من ذلك، وطلب إليه أن يكون رجلاً، فقال الابن: «لقد صدمتني يا أبي، برقّتك بالأمس، بينما كنت أنا فظًّا غليظ القلب ثقيل الظل دون أن أراعي حقوقك عليّ»، فازدادت دموع الأب وشكر الله على نعمة التربية.

مناجاة

أناجيك يا مالك الملك والأكوان، يا خالق العباد، أن تنقّي القلوب وتطهّر النفوس من الحسد والحقد، وأن ترفع الكرب والغمّة والمحنة والبلاء عن خلائقك، والشدّة والمرض، وأن تسود الإنسانيّة بين بني البشر.

نرنو إليك في علاك ونستغيث بهداك، أنت الذي خلقتنا من عدم وعشنا على أمل أن تقودنا إلى الخلاص، فليس لنا أحد سواك، نناجيك يا عالي المقام، أنت قلت: «اطلبوا يستجاب لكم» وها نحن نسترحمك فأنت الرحيم الغفور أبد الدهور. وأن تبسط يد الرحمة وتزيل الأسى والأحقاد. أناجيك يا عالي المقام، أن تغفر ما تقدّم منّا وتأخّر.

نعيش بأمل الباري عز وجل ، خالق السماوات والأرض، الذي أطعمنا وسقانا ماء الحياة، وهدى الإنسان كي يمشي في مناكبها ويبحث عن جمال الحياة في أرض الله الواسعة، وليجد فيها ما لذّ وطاب، وسخّر لنا البحار بخيراتها.

نناجيك يا عالي المقام، أن تجزينا الخلاص الأبديّ، فليس لنا أحد سواك، وقلت: «اطلبوا يستجاب لكم»، ها نحن نسترحمك فأنت الرحيم الغفور أبد الدهور.

الفراشة

انطلقت إحدى الفراشات من زهرة من زهور حديقة المنزل مقتربةً منّي وبدأت تداعبني. تخيّلت نفسي زهرة كبيرة تريد أن تشف الرحيق منّي، وأنا مسرور لأنّها تحوم حولي ولست بصاحب رحيق! تفر من الشمال إلى اليمين ومن الأعلى إلى الأسفل حول رأسي، «ماذا تطلبين منّي أيّتها الفراشة الناعسة؟»، بقدر ما راقني الموقف لم أحاول إبعادها عنّي، إذ إنّها مخلوق السعادة بالنسبة إلى الإنسان كما يقولون، تآلفنا وأحبّت ألفتي وأحببت ألفتها.

يا مخلوقات السعادة تعالين إليّ كلّ يوم، سأجمع لكن ورد الحقل وأزهاره وأضعها تاجًا على رأسي. لا أريد أن أخسركن أو أن أضيق عليكن سبل عيشكن، فأنا مثلكن، أنا إنسان بسيط يحب أن يملأ قلوب الآخرين أملاً وسعادةً، لا أحب أن أعيش في حقدٍ وتعاسةٍ، أحب الخير للجميع وأحاول أن أطرد الغدر والكراهية عن الروح الإنسانية، أوزّع فرح وبهجة الحياة على كلّ بني البشر، فسعادتي من سعادة مَن حولي.

الحراثة

خرج فلاح إلى أرضه يريد حراثتها بعد أن جهز عدة الحراثة والثور الذي سيحرث الأرض، وربط عدة الحراثة بالثور ليباشر عمله. أثناء الحراثة طارت ذبابة كبيرة وحطت على قرن الثور، يبدو أنّها استطابت المكان فبيقت على قرنه طوال النهار، وفي ساعات المساء عادت الذبابة إلى جماعتها من الذباب بعد أن شغل بالهم غيابها طوال النهار مستغربين الأمر، فسألتها صديقاتها: «أين كنت طوال النهار ونحن قلقات بسبب غيبتك عنّا؟»، قالت: «لقد كنّا نحرث الأرض». فقلنَ: «كنتِ تحرثين الأرض! كيف تم ذلك؟»، قالت: «وقفت على قرن الثور الذي كان يحرث، وكان صاحب الأرض خلف المحراث يشجّع الثور ويحثّه على المزيد من العطاء، وبقيت أنا على قرنه أشاهد كيف يحرك الثور المحراث. وعندما حان موعد الطعام، وضع الفلاح طعاما للثور ليأكل ويأخذ قسطا من الراحة، فغادرت قرنه لأشاركه الطعام وأتامله وهو يلتهم الأكل، وبعد انتهاء الاستراحة عدنا الى العمل، فقفزت إلى قرنه مرة أخرى لأكمل معه بقية النهار، وهأنذا أعود إليكنّ بعد أن أتممنا حراثة الأرض».

ضحكت زميلاتها على أقوالها وهي تدّعي الجهد الكبير الذي قامت به، فالصغير يدعي ما ليس له قدرة عليه ويرى كل شيء كبيرًا، والكبير يبذل جهدا عظيما ولا يأبه لصغائر الأمور.

قوس قزح

إذا كنت تقدّم لونـًا من ألوان قوس القزح على آخر، فلن يجعلك ذلك عاجزاً عن تقديم اللون الذي تريد أن يراك الناس فيه.

مرايا

- المسؤول الذي يعد بالسمن والعسل الكثير يعرف أنّ قدرته محدودة ولا يستطيع أن يقدّم أكثر ممّا هو عليه الحال.
- القطيع يستجيب للجرس ولا يسأل عن ذكاء المرياع أو مدى صلاحيته للزعامة، فأفراد القطيع كلّهم يسمعون صلصلة الجرس ويتحركون خلفه.
- لتكن حراً. لا تدع أحداً يفكر عنك.
- انظر إلى مَن هو أعلى شأنًا منك واترك الباقينَ خلفك ينظرون إليك.
- الأحلام بيادر من الأمنيات ترتقي بالإرادة والإخلاص في العمل، عليك أن تعمل على الثانية لتحقيق الأولى.
- «الوفاء غالٍ جداً، فلا تتوقعه من رخيص». هناك مَن يضحّي لأجلك وهناك مَن يضحّي بك.
- لا ينام بعمق إلّا مرتاح الضمير.

كتابك في يمينك

إذا قرأت كتاباً سترتفع منزلتك درجة، وإذا قرأت عشرة كتب سينقلك ذلك إلى تلّة عالية، وهكذا ستكون نظرتك إلى الأمور أوسع وإلى الأحلام أكبر وإلى الرؤى أشمل.

فلا تبخل على نفسك بما هو أجدى وأفعل.

السرسريّ والشلايتيّ

يقال إنّ السرسريّ كان يعرف في زمن الدولة العثمانيّة بأنّه مراقب الأسعار، وظهرت وظيفته في زمن السلطنة، إذ كان التجار يغالون بأسعار السلع التي يبيعونها ويغشّون في الميزان؛ فقرّر السلطان تعيين سرسريّاً في كلّ مدينة ليراقب الأسعار في الأسواق، لكنّ ذكاء التجار كشف السرسريّين، إذ تعرفوا عليهم ولم ينجح السرسريّ في الحدّ من ارتفاع أسعار السلع، بل اتفقوا مع التجار على الرشوة. أرسل السلطان أحد وزرائه لتقصّي الحقيقة، فاكتشف حالة الفساد وأبلغ السلطان بذلك.

قرر السلطان تعيين الشلايتيّين (الشلاتي) مراقبين على السرسريّين، لكنّ المشكلة أنّ السرسريّين تعمقت جذورهم في الفساد والرشوات كأنّها أصبحت حقوقاً لهم وبرضى التجار، وبذلك تمكنوا من إقناع الشلايتيّين بهذا الدور، فتحوّلوا إلى مرتشين جشعين يقتسمون ما يتحصلون عليه وما يجمعونه، ومن يومها أصبحت كلمة «السرسريّ» مسبّة في المجتمع.

التعامل مع الجاهل أسوأ من التعامل مع المراوغ.

طلب المعالي

اطلب المعالي وعش كالنخل شامخاً، اترك مَن يرى نفسه قرمطا، يتشدق بأنه عالي المقام. فللناس من الحصافة حتى تميز بين خسيس وهمام. وإيّاك وخضراء الدمن، فالمظهر لا يقنع البشر، وكن دائما سيد رأيك دون الالتفات الى الوراء، واترك الهموم ليومها، فالأيام تمرّ مرور الكرام، فيا صاحب القلب الكبير، أنت من يستحق الاهتمام، وغيرك يرنو الى النهوض مثلك ولكنه تنقصه روح الجد والالتزام. فأسد الغابة لا يخشى الوحوش كلّها بل ينضد الهامات تلالاً كالصوام، وزئيره يقصف كالرعد كل مَن تسول له نفسه بالاقتراب منه.

العالم الجديد

الغالبيّة العظمى من شعوب العالم الثالث تعيش في الماضي، الحاضر عندهم يتولّاه غيرهم، ولا يسألوا أنفسهم: لماذا تغيّر وتطور العالم وبقيوا بدورهم على قارعة الطريق؟ السؤال: كيف يغيّر العالم الثالث نفسه؟ لماذا لا يدرس حالته ويجيب عن هذا السؤال؟

نحتاج إلى طريقة نوصل بها الضوء إلى الدماغ والعقل ليكتشفا نور العالم. العديد من الناس يقترحون أنّنا في حاجة إلى شاكوش ومسمار طويل لنضرب بالشاكوش المسمار لإدخاله إلى عقول متعبة، كي نفتح نوافذ ضوء تنفذ منها الشمس إلى العقول وتضيؤها لترى كيف تطوّر العالم وأصبح عالماً جديداً بالذكاء والفكر والعمل والاختراع والابتكار.

فنحن نستعمل ما ينتجون ويبتكرون وننكر عليهم أنّ عندهم بضاعة جديدة وعقولاً منفتحة، يتنافسون في مَن يسبق الآخر في الإبداع والابتكار.

طريق الحجّ

قبل وجود وسائل النقل الحديثة -السيارات، الطائرات وغيرها- كان الناس يحجّون إلى بيت الله على ظهر ركوبة (الخيل والدواب) وأحياناً مشياً على الأقدام، وكانوا يمرّون بأقوام مختلفة، لكنّهم كثيراً ما كانوا يواجهون قطاع الطرق والسارقين، فيسلبونهم ما يملكون من أموال وكلّ ما هو ثمين، لذلك كانوا في الغالب ينتظمون في مجموعات يتقدّم بعضهم ويتأخر بعضهم الآخر، كلٌّ حسب ركوبته.

الكثير من الحجاج كانوا يأتون من بلاد القوقاز وتركيا عبر سوريا ويعودون من الطريق نفسه ليبتاعوا العديد من السلع المتواجدة فيها دون غيرها. كانت ثقة الناس بعضهم ببعض عالية، إذ كانوا يودِعون التجار هنا وهناك أموالَهم وذهبَهم، خاصة في سوق الحميديّة الشهيرة وقتها في دمشق، خوفاً من قطاع الطرق والسارقين، وفي طريق العودة يستردّونها بالتمام والكمال. كانت سمعة التجار وأمانتهم مستحكمة وموثوقة بين الحجاج.

مرّ أحد الحجاج على أحد هؤلاء التجار ووضع عنده صرّة ملفوفة بقماش أحمر، وسأل التاجر عن المبلغ الذي تحتويه الصرّة، فأبلغه أنّ فيها خمسة الآف دينار، فأخذها التاجر دون أن يفتحها واحتفظ بها إلى حين عودة الحاج من الحج. بعد ثلاثة شهور من أداء فريضة الحج عاد

إلى التاجر يطلب وديعته. دخل الحاج متجراً ظانّاً أنّه المتجر الذي أودع فيه المبلغ، فطلب منه الصرّة. سأله التاجر: «كم هو المبلغ الذي في الصرّة؟ وما لون القماش؟»، ليتأكد من حقيقة مطلبه، فأجابه الحاج عن أسئلته.

لم يكن التاجر يملك كامل المبلغ المطلوب، فأسرع إلى أحد زملائه التجار، أحضر ما يحتاج إليه كي يكمل مبلغ الحاج، وضعه في صرّة مشابهة وسلّمه إيّاها، لكنّ الحاج شكّ في أنّها الصرّة الأصليّة التي أودعها، فخرج الحاج بما طلب شاكراً التاجر على وفائه وثقته. في أثناء مرور الحاج بالسوق جلب انتباهه التاجر الأول الذي أودعه المبلغ ودخل إلى متجره، فتذكره التاجر وقال له: «لقد أودعتني خمسة آلاف دينار في صرّة حمراء». تعجب الحاج وقال: «كيف أعطاني التاجر المجاور لك المبلغ والصرّة؟»، فعاد إلى التاجر الأول وقال له: «كيف تعطيني ما لم أعطك إيّاه؟ لقد تعرفت على التاجر الذي وضعت عنده الصرّة وها هي»، وأعاد الصرّة التي أخذها من التاجر الأول، فقال التاجر: «تيقّنت أنّك صادق في ما تطلب أولاً، وخشيت أن تطعن بأمانة تجار السوق إذا لم أردّها لك، فقمت بجمع المبلغ ولم أكن أملك إلّا خمسمئة دينار منها».

الانتماء إلى الوطن يعني أن نحافظ على سمعته وثقة الناس به.

الأرض تتغزل بالقمر

أنا الأرض.. فريدة في الكون والتكوين. وأنت قمري عشقي الأبدي، أجذبك وتجذبني، أتبعك وتتبعني، تنير ليلي وغيابك يقلقني، فأخاف من كسوف أو خسوف. ومهما سرتَ بعيدا، تهلّ عليّ من جديد، تنظر اليّ، تتأمل زرقة بحاري وخضرة زرعي.

قمري، يا أحلى الأقمار، مهما حاولت الإفلات مني، لا تقدر على عزمي، فلا تنسَ أني أجمل الكواكب، وأسأل الكواكب عن سرّ جمالي. أنا متيّمة في مرآك، فنحن للهوى خلقنا ولولا الهوى ما كان في القلب عشق.

عجائب الدنيا

لا تتعجب من هذه الدنيا، ففيها عجائب كثيرة. في ناسها عجائب أكثر من العجائب في جمادها، أمزجتهم، أحاسيسهم، خيالاتهم، رغباتهم، سلوكهم، مشاربهم عجيبة وأطوارهم غريبة، قد يكون هذا شيئًا صحيًّا ومفيداً أحيانًا.

ولكنّني لن أذوب وأُذوّب نفسي وذاتي في طبائعهم، وإذا فعلت ذلك فعليّ تقبُّل الواعي والجاهل، المنافق والمدلّس والمراوغ والمهادن. لديّ من القدرات والوعي ما أوزّعه عليهم. أحاول أن أضع نفسي في المكان الصحيح، ولديّ من المرونة ما يشبه العجينة، أشملها حسب متطلبات ما يصحّ مع الصحيح.

فقد يصبح الواعي أحمقَ، وقد يصبح الصادق كاذبًا والحكيم مغفَّلاً وأهبلَ.

معايير رشد الإنسان تكمن في حكمته وفكره، وأغيّب بقية الصفات إلى أن يثبت يقيني على ما فيه من غايات لأرضى عن نفسي وضميري وأكتفي بهمومي وأحاسيسي.

انتخابات

يحكى أنّ أحد القردة كان معتَزّاً وفخوراً بنفسه حد النرجسيّة، فجمع من بني جنسه المئات، وخطب فيهم خطبة عصماء في حفل انتخابيّ مهيب واعداً إيّاهم بتحسين أوضاعهم، ورفع قيمتهم بين الحيوانات الأخرى، فتحمّس العديد من القردة حماساً منقطع النظير، كما تعجّب العديد منهم من ثقته الزائدة عن الحد، وانتاب العديد منهم أيضاً ضحكٌ هستيريّ. تسربت وقائع الاجتماع إلى بقية حيوانات الغابة فاستغربوا توجهات القرد، إذ إنّه صمم على توجهاته لخوض الانتخابات.

عندئذٍ وجّه داعميه إلى أن يذهب كلّ واحد منهم إلى نوع من فئات الحيوانات الأخرى ليدعوهم إلى حضور التجمع الانتخابيّ الذي ينوي عقده، ليحضر من كلّ فئة مندوبين عنها يمثّلونها في الاجتماع لمناقشة موضوع خوض القرد الانتخابات. فجمعت كلّ فئة منها أعداداً غفيرة لحضور التجمع الانتخابيّ، وكان عدد الحضور يزيد على ثلاثة آلاف حيوان في الساحة المعَدّة لذلك، في حين كان يكفي نصف هذا العدد مع جماعته من القردة لفوزه في الانتخابات.

خطب القرد فيهم وأبلغهم عزمه على خوض الانتخابات النيابيّة وقد أعجب بهذا التجمع الذي سينتخبه للبرلمان، وعدّ ذلك علامة تفاؤل. أُجرِيَت الانتخابات في اليوم الموعود وفُرِزَت الأصوات وفي ظنّه أنّه الفائز

الأول مفترِضـًا أنّ مَن تجمّع حوله وسمع خطابه -بلا شكّ- قد صوّت له، لكنّ النتيجة كانت أن هُزِم شرّ هزيمة. استغرب الأمر موضحـًا أنّه قد تجمعت لديه الحشود للتصويت له، فرفع دعوى وسأل القاضي: «كيف يتجمع أكبر حشد انتخابيّ لأجلي وأخسر الانتخابات؟» قال له القاضي: «إنّ أغلب الحاضرين كانوا من الثعالب والذئاب والأسود الذين أتوا مستهزئين بك، أتوا ليضحكوا على ما يبدو على المجد المزيف الذي صنعته لنفسك وصدّقته بنرجسيتك».

فاحذر يا ابن الإنسان أن تصاب بالغرور كالقرد.

كلب مسالم

كان أحد الفلاحين في القرية يربّي المواشي ويضع لها كلباً لحراستها من السارقين والوحوش البريّة، وكان الكلب -على الأقل- ينبّه صاحب المواشي إلى أيّ خطر قادم إليها. هكذا اعتاد صاحب المواشي على الكلاب التي كان يقتنيها. أما الكلب الأخير الذي رباه ربّما كان كلباً مسالماً لا يحبّذ أن يتدخّل في ما يحدث للمواشي، بل كان ينام في الليل ويصحو في الصباح، يأكل ولا يشبع، بينما يترك الضباع والذئاب تسطو على الغنم. كان صاحب المواشي صبوراً تثيره الشفقة على الحيوانات كلّها بما فيها الكلب رغم تقصيره في القيام بواجبه، لكنّه كان يستغرب أنّ الكلب لا يعوي ولا ينبح كعادة الكلاب.

كان الفلاح يستشيط غضباً كلّما فقد واحدة من الأغنام، وبعد طول صبر على الكلب أحضر صاحب المواشي كيساً مخصَّصاً لنقل الحبوب مصنوعاً من شعر الماعز، يسمّونه «عِدلاً»، ووضع الكلب في العدل وأغلقه، ثمّ أحضر عصا غليظة، يسمّونها «شومة» باللهجة المصريّة، وبدأ يضرب الكلب، فبدأ الكلب يعوي ويصيح من شدة الضرب، ثمّ فتح العدل وأطلق سراح الكلب الذي غاب عن البيت ما يزيد على أسبوعين؛ فتركه الفلاح ليرى ما تطوّرت إليه الأمور.

وبعد عودته، لاحظ الفلاح تطوراً ملموساً في حركات الكلب إذ بدأ يقوم بواجباته خير قيام، يحرس البيت، يحمي المواشي ويعارك كلّ غريب.

الوحوش

يدهشني طريق الياسمين، أُشبع روحي من عبق لا أراه في وجوه الآدميّين. آه على نسائم أشتهي أن أعيش مخموراً في فضاءاتها ولو إلى حين! أوّاه على نفوس تشتهي كسرَك لأنّك سليم معافى، وتنسى أنّ في الدنيا فراشات تسعد بمَن يهديها الرحيق! فكلّنا نشتهي رحيق الحياة. أعيش بدهشتي كالفراشات، لكنّني أخشى الوحوش التي تتربّص بي في الطريق.

فقد وصلنا إلى زمن لا يحب أحد فيه أحداً. كلٌّ يركض وراء شيء واحد يخصّه: المصلحة.

فجأةً، وإذ بي أسير في الغابة ولا أعرف كيف وصلت إليها! الوحوش البريّة كثيرة، منها الكبير ومنها الصغير، لحمي حلال لها! كنت أبذل جهدي لأتوارى عنها تائهاً في الطريق. أنا في عالم الأحلام، حلمٌ يتلو حلماً، طالت الأحلام إلى أن تحوّلت إلى كوابيس مقيتة.

بطبعي جبان، ليس لي هواية أن أغامر مغامرات مثل هذه، ربّما كانت رمية من غير رامٍ. صحوت من الكوابيس مذعوراً؛ حمدت الله أنّني في المدينة وعلى الرصيف سليماً، لكنّني أهيم على وجهي الملطخ بالقذارة، ومعدتي خاوية وملابسي رثّة وكسائي رديم.

أعرف المدينة حق المعرفة. في المدينة وحوش وحيتان لا تأكل لحم الآدميّين أو اللحوم البشريّة، إنّما تتوحش عليهم بأسنان كأنياب الذئاب، تنال من عقولهم وضمائرهم وإنسانيّتهم ومعيشتهم، وبطرفة عين منهم تشعرك بحقارتهم، وبقدر ساديّتهم تتلذذ في إماتتهم موتاً بطيئاً، يسمّونه «الموت الرحيم».

يا وحوش البريّة، تعالوا وانهشوني وافترسوني قبل أن أقع في قبضة الوحوش البشريّة، ففيكم رحمة أكثر من وحوش المدينة، فأنتم بوحشيّتكم أرحم عليّ من بني جلدتي.

حال الناس كثرة الانتقاد

رسم فنان لوحة وظنّ أنّها أجمل اللوحات على الإطلاق. أراد أن يتحدى بها جميع الفنانين. حاول العديد من الناس أن يردعوه عن هذا الادعاء وقالوا له: «لا تبالغ كثيراً، في الأسواق لوحات أجمل منها»، لكنّه لم يغيّر قناعته، وعدّ آخرون أنّ من طبيعة البشر أن يعتزوا بما ينتجون، خاصة أنّه ليس في مقدور كلّ فرد أن ينتج فنّاً كون هوايته ومهنته غير ذلك، لكنّ صاحبنا تمسّك بادّعائه، وليختبر موثوقيّته قرر أن يضع لوحته في مكان عام وكتب فوقها: «من رأى منكم خللاً -ولو بسيطاً- فليضع إشارة هنا أو هناك تدلّ عليه». بعد يومين وجدها قد طُمِسَت تماماً بالعلامات الحمراء.

عاد الفنان إلى معلّمه وأبلغه أنّه قرر ترك هذا النوع من الفن لشدة سوئه، أبلغه المعلّم بأنّه سيغيّر العبارة فقط، وطلب منه رسم اللوحة نفسها ووضعها في المكان نفسه، لكن عليه هذه المرة أن يضع ألواناً متعدّدة وريشة للرسم إلى جانب اللوحة ويكتب: «مَن رأى خللاً في اللوحة فليمسك الريشة ويصلحه».

مرّت أيام لم يقترب فيها أحد من اللوحة، فقال المعلّم لمَن رسمها: «كثيرون الذين يرون الخلل في كلّ شيء، لكنّ المصلحين نادرون». هذا هو حال الناس، يعشقون الانتقاد، ولا أحد يقدّم الحلول أو يصوّب الأخطاء.

الحمدللّه رب العالمين

وقف أمام المسجد يخطب في الناس، بدأ خطبته قائلاً: «الحمدلله رب المسلمين»، لكزه أحد المصلّين الواقفين إلى يمينه وقال له: «رب العالمين شيخنا»، فاعتذر الشيخ، وعاد مرة أخرى ليقول: «الحمدلله رب المسلمين»، فضرب كتفه مَن يقف إلى يساره وقال له: «رب العالمين شيخنا»، فاعتذر الشيخ مرة ثانية وعاد للخطبة واسترسل في خطبته ثمّ قال: «الحمدلله رب المسلمين»، فقام الناس جميعاً صارخين: «رب العالمين شيخنا».

ابتسم الإمام وقال: «طالما أنّكم تعرفون أنّه رب العالمين وليس رب المسلمين وحدهم، فلماذا تصدّقون مَن يزرع الفتنة ويكفّر الناس غير المسلمين وتتصرفون كما لو أنّ رب العالمين ربكم وحدكم؟».

أيّها البشر، لا تجعلوا تصرفات الإنسان تسمو على الله القدوس بوعي وبدون وعي.

احمد اللّه دائماً

كانت هناك عائلة تعيش في إحدى القرى، مؤلفة من زوج وزوجة وابنتين، وكان أن زوّج الرجل البنتين في السنة نفسها إلى رجلين كلّ منهما يعيش في قرية بعيدة عن سكن العائلة. إحداهما تزوجت فلاحاً والأخرى رجلاً يصنع الفخار. بعد سنة من زواجهما طلبت الزوجة من زوجها أن يزور ابنتيه ويطّلع على أحوالهما عن كثب.

توجّه والدهما إلى أقربهما إلى قريته، إلى زوجة الفلاح، وسألها عن أحوالها، فقالت له: «استأجر زوجي أرضاً وزرع بذوراً فيها، فإذا أمطرت الدنيا فنحن بخير وإن لم تمطر خسرنا كلّ شيء».

زار ابنته الثانية، زوجة صانع الفخار، وسألها عن أحوالها ومعيشتها فقالت له: «لقد اشترى زوجي صلصالاً وصنع فخاراً، فإذا أمطرت الدنيا سنخسر كلّ شيء وإذا لم تمطر فنحن بخير».

عاد الرجل إلى زوجته التي سألته عن أحوال البنتين فقال لها: «إن أمطرت الدنيا فاحمدي الله، وإن لم تمطر فاحمدي الله، فما يناسب الأولى قد لا يناسب الثانية».

الحرامي الجريء

المدعي العام:

– يعني يا حمدان، شفت الحرامي وهو يخنق زوجتك حتى الموت؟

حمدان:

– آه والله يا سيدي، شفته.

المدعي العام:

– طيب، لماذا لم تتدخل يا حمدان؟

حمدان:

– والله يا سيدي، شفته قادر عليها، فلماذا أتدخل؟

اليقين بالحق

سأستبيح بديهتي وأترك لها سبيل الحكم على مَن أخالط من الناس، مستغِلّاً حق الاستباحة لأجرّد نفسي من كلّ ادعاء بأنّني على حق، لأتجاهل الحقيقة إذا كانت ممّن يخالفونني الرأي وأجافي الموضوعيّة.

وإذا كان بعضهم جدير بالثقة التي تبلغ حد اليقين، لا أمانع أن أُخضِعَ نفسي له لنتناقش في أيّ اختلاف أو توافق بيننا، ولست في حاجة إلى استباحة نفسي لمهرّج أو منافق أو منتفِع من ذلك.

أستاذ القانون

قبل نهاية الفصل الدراسيّ في كليّة القانون، كان الأستاذ مستاءً من وضع طلبته القانونيّ ومن الغاية من وجود مادة القانون، إذ لم يجد فيهم روح الثقة والحق. قبل الامتحان الأخير سأل الطلاب: «ما الغاية من دراستكم القانون»، فأجابوا إجاباتٍ بلهاءَ مبتعِدين عمّا زرعه في نفوسهم طوال العام. في أحد الأيّام فاجأ تلاميذه بأن قام بطرد أذكى طالب في الصف قائلاً له: «أنت لا تستحق دراسة هذه المادة، فقد وجدتك مرة تغش في الامتحان». استغرب زملاؤه ذلك وبدت علامات الاستغراب تقصف وجوههم ولم يحاول أحدهم الرد على ذلك. تابع الاستاذ مخاطبًا بقيّة الطلاب: «وأنتم جميعًا لا تستحقون النجاح وعليّ أن أمتحنكم من جديد».

وصل الخبر إلى مدير الكليّة وزملائه من المدرسين، وعندما عاد أستاذ المادة إلى غرفة المدرسين سألوه عمّا فعل، فأجابهم: «إنّهم لا يستحقون فعلاً ذلك النجاح»، فقالوا: «كيف ذلك؟»، قال الأستاذ: «طردت أفضل من فيهم من الصف ولم يحتجّ -هو ذاته- على طرده، علاوةً على أنّ بقيّة زملائه بقوا صامتين على هذا الظلم ولم ينبسوا بكلمة واحدة، فكيف لهؤلاء أن يدافعوا عن المظلومين إذا لم يدافعوا عن زميلهم وعن أنفسهم؟ الساكت عن الظلم ظالم، وأنا لا أريد أن أخرِّج ظالمًا أو مَن هو مثله».

وعي اللاوعي

نحن مجتمع متآلف، عطوف، ودود، مجامِل، ظاهريّ العواطف ويحب النخوة، يعيش زيف الحياة وبطرها وليس زهدها، والأهمّ أنّه يدعو إلى الفضيلة وينسى نفسه، وفي المقابل يميل إلى النفاق ويحب الغوغائيّة، محدود الوفاء، قليل التدبير والتدبّر، يلهث خلف المنافع وأهل السلطة، فيه الكثير من النفاق، يلجأ إلى الاستدانة من البنوك لتأدية واجبات هامشيّة في الحياة وغير ضروريّة إلّا للوجاهة وحب الظهور والإطراء الذي يجلب له الغرور الذي لا يساوي حبة الخردل. مجتمع يركض خلف الوجيه والمسؤول لينال رضاه وهو ليس في خاطره أو على باله، يحمسّه ويشجّعه ليتطاول علينا ويدعي أنّه صاحب قيمة كبيرة وغيره لا يساوي شيئاً.

لذلك كلّه فكرت في أن أكون متمرداً وعصيّاً على الانكسار أمام هذه الظواهر السلبيّة، أتمرّد على ذلك رغم الشدّ العكسيّ الذي هو أكبر منّي ومن جهودي، فمجتمعي يدعو إلى خضوعي قائلاً: «إنّك لا تستطيع الوقوف أمام عصف الريح»، وإذا لم ألتزم بما يقوله مجتمعي سأعزل نفسي أو يعزلونني كأنّني ناقة جرباء بين هذا القطيع المجتمعيّ، فالعادات والتقاليد أقوى من القوانين.

يسمّون الخروج عن المعتاد «اعوجاجًا» ولو قصدت به الإصلاح!

تسمّرت في مكاني سنواتٍ أحاول فيها البحث عن منافِذَ تُخرِجني من هذا الطوق والقيود الاجتماعيّة التي أحكمت قبضتها كالقوانين على المجتمع، أتطلّع إلى الخلف، أبحث عن المستفيد من هذا الوضع، أجدهم يتكلّمون عن العيب، هذا عيب. سألت شيخًا فاضلاً التقيته في بلاد الغرب عن معنى كلمة «عيب» عندهم، فأجاب: «إنّ العيب هو ما تعارف الناس عليه أنّه عيب؟ وهو غير موجود في المجتمعات الأوروبيّة، وإنّ التقاليد والأعراف ليس لها سند قانونيّ أو دستوريّ أو أنّ مفاهيمها قد تطورت مع الزمن، ولا يسأل أحدٌ آخرَ عمّا لا يعنيه».

كلّما نظرت إلى سنوات مضت وجدت الكثير من أيامها كانت كالقصب دون لحاء قشرة، قابل للكسر، تآكل داخله وجفّ بسبب الجفاء بين الناس وأصبحت الحياة جوفاء دون لحاء في أعيننا، عازمين الصمود. وما زلت أسأل: ما الذكريات والإنجازات الصادرة عن وعي منّا التي يمكن أن نراكم عليها جهودنا؟

مرّت السنوات هباءً وتحسين الحال بات ممتنعًا، وبات الزهد انكساراً والكرم سحابة صيف عابرة تجري في غير محلها، والحياة نفقًا مظلمًا بحق الجيل الجديد، والنتيجه خراب في خراب، نتقدّم خطوة ونتراجع خطوتين إلى الوراء. اليوم يدعون إلى استثمار الإنسان بعد أن

أشبعوه جوعـًا وعوزاً، لقد عبرنا الزمن بعقليّة طائشة كالزيـت على سـطح المـاء، ولـم نفهـم أو لا نريـد أن نفهـم الـوعي الحقيقـيّ للحيـاة، فالحكمـة شاهدة على العصر: ﴿**لا يُغَيِّرُ الله ما بِقَومٍ حَتّى يُغَيِّروا ما بِأَنفُسِهِمْ**﴾.

خبز أمي

أحنّ إلى خبز أمي. آه ما أشهاه! لو جرّبتموه مرة لن تنسوا طعمه مدى الحياة. خبز من القمح الصافي كانت تخبزه صباحاً وترسله إلى الحصادين. عشرة أرغفة بحجم خبز الشراك، وكل رغيف يزن خمسة من أرغفة الشراك. تحتاج إلى ساعة من الوقت لقطع المسافة والوصول إلى الحصادين. بدأ المرسال يتناول الأرغفة واحداً إثر واحد، فاستهلك عشرة أرغفة قبل وصوله إلى الحصادين. وقف على حافة الطريق يفكر: ماذا يفعل وقد أكل عشرة أرغفة؟ عاد أدراجه يطلب غيرها، له عذره فهو خبز يُشتهَى أكله.

طيران العصافير

أحب أن أطير كالعصافير، أبحث عن نسائم الصباح برقتها كما تبحث الفراشات عن الرحيق، وعن حرية ممتدة عبر الفضاء الخالي من القيود، أحتاج أن أبتعد عن عيون تختلس السعادة من الوجوه وآذان تسترق السمع وتكسر الحواجز الخارجيّة التي تحيط بي لكشف أيّ مستور خاص أحتفظ به.

يقولون إنّك حرّ ويربطون حريتك بحبل من مسد. أنا حرّ، لكنّني لا أمارس حريتي من كثرة القيود غير المكتوبة. ما الفرق بيني وبين حمار مربوط إلى وتد أو شجرة؟ نعم، إنّه حرّ، لكن بحدود دائرة ضيقة. نعلن له بالصراخ والزعيق: «أنت حرّ، أنت حرّ، مارِسْ حريتك بلا قيود»، وإذا أتته السباع فإلى أين يلوذ؟ إنّه حرّ، يأكل ويشرب ضمن دائرة الرباط المقدسة الممنوحة له، هنيئًا لك أيّها الحمار، فأنت حرّ.

لذلك كلّه أحببت الطيران كالعصافير.

معزوفة المطر

خرجت من المنزل مستهَمّـًا، على عجل فتحت بوابة العمارة التي أقيم فيها، واجهتني غزارة المطر، قلت في نفسي بتردد بين المضي والتراجع: «باين السنه سنة خير». وقفت أسفل التندة أنتظر أن يهدأ الطقس فتهدأ العاصفة المطريّة قليلاً، لم يكن لي ذلك؛ توكلت على الله وعزمت على مشواري القصير متسلِّحـًا بهمة الشباب. انطلقت وحبات المطر تضرب رأسي وتقسو عليّ. لحظات وبللني المطر الغزير، قلت في نفسي: «أرجع من حيث أتيت»، أوجعني خاطر الرجوع بعد البلل والخوف من العودة دون إتمام المهمة الموكلة إليّ، فالأمر أصبح محكومـًا بمَن هم خلفي ينتظرون منّي تأدية المهمة. وبين حماسي لإنهاء المهمات كون المسافة اقتربت من النهاية، واصلت الطريق إلى هدفي؛ لامني مَن وصلت إليه على عدم استعمالي مظلّة أو أيّ شيء أستر به جسمي.

أتممت المهمة وعدت أدراجي إلى المنزل وملابسي تمطر كأنّني أصبحت مزنة. لامني أهل الدار على تصرفي الأحمق: «لماذا لم تستعمل عقلك؟ هو أنت ولد صغير ما بتفهم؟»، نلت من السخرية ما يكفي قرية، فضّلتُ السكوت على أن أتراجع أمامهم والقشعريرة تنفض جسمي. كان الأهل كرماء معي وأحضروا لي ملابس جديدة لأنزع القديمة عن جسدي لعلّها تسعفني ممّا ينتظرني. جهزوا لي فراشي وطمروني بالأغطية رغم أنّ

المنزل فيه من الدفء ما يكفي، لكنّ الجسد لم يهدأ والقلب كاد يتفتت بين أضلعي.

كأنّ مؤامرة هبّت عليّ، هكذا تولّد الإحساس لديّ، حتى الطبيعة كانت ضدي! إنّه الشعور بالهزيمة أمام تجربة لئيمة. راودني شعور مَن هُجِّروا من ديارهم واضطرّتهم الحياة إلى سكن خيام تعصف بها الرياح، وقدّرت أنّ المؤامرات على الشعوب يقف خلفها منافع ومصالح لا تساوي جزءاً من عذابات يوم واحد لمَن يقع عليه الظلم.

أما أنا فقد احتجت من الوقت والهمّ أسبوعاً لألملم مأساتي الهزيلة أمام مأساة المهجَّرين من بيوتهم. يعيش العالم في غابة تنقصها الإنسانيّة.

لا تمنح الحب كلّه

بعض البشر يحبون الحياة ويزيدونها بهاء، وبعضهم الآخر يحبونها ويحبون النكد فيها، وآخرون يفسدونها على أنفسهم وعلى غيرهم. فمنهم الورد ومنهم الدبابير ومنهم الهوامش. أما أهل محبة الحياة والناس فهم قلة قليلة تذبل بسرعة كالورد.

يتوكّل الكثير من الناس على الله بكلمات تنطلق من رؤوس ألسنتهم، أما قلوبهم فهي في مكان آخر.

لا تمنح غيرَك الحب كلّه الذي تملكه مرّة واحدة، فمتغيّرات الزمن خدّاعة. الناس -أغلبهم- ينظرون من خلال قلبك، يقتربون ويبتعدون دون أن تكون أنت في نفوسهم. ينظرون إلى شموعك المضيئة ولا يكترثون لما ينطفىء منها، والباقي منها لديك فقط ما يشغلهم، إذ يختلفون بصدقهم وإخلاصهم.

نصيحتي أن اترك القليل من حبك في قلبك لحسابات الغد حتى لا ينزعوا الحب كلّه من قلبك ويتركوك عظمًا دون لحم.

شفّاف يخاطب معتم

لا تقترب منّي، ابتعد عنّي، ابتعد عنّي.
لا تسألني عَمّن آمن أو جدّف أو ألحد.
أين أنت؟
أين أنت من هذا؟
اسأل نفسك، هل وصلت إلى المنتهى؟
أم أنّك مشغول بما عليه غيرك.
أنا لا أبحث عن كائن مبطّن..
بل أبحث عن شفّاف مثلي..
يكشف لي عن باطنه ويكشفني.
أبحث عمّن يملك قلبًا أبيض، أقبله ويقبلني.
أمّا المعتم، فتناسبه الألوان كلّها..
لا تدري بأيّ لون يتستّر.
وأنا شفاف، لا أطيق الملوَّن
المتقلِّب الذي ليس له وجه محدد.
لا، لا..
لا تكلّمني، فهذا زرعي..
غير قابل لأن يطعَّم بما يشتهي غيري.

لا تقترب منّي فتحيطني بعتمتك لأصبح مثلك..
ولا تهدّدني وتتوعّد لي إذا خالفتك.
أمقت عكر الماء فكيف بآسنه؟
لا تقترب منّي، ابتعد عنّي.
ارحل إلى دنياك واتركني لهمّي.
فأنا لست مثلك لتحتويني.
أنا شفّاف، شفّاف، لا معتم ولا ملوّن.
اتركني وابتعد بعيداً عنّي.
يستحيل أن نلتقي..
يستحيل أن نلتقي.

صلاة بريئة

البيوت في القرى الريفيّة متباعد بعضها عن بعض في العادة. في إحدى القرى كانت تعيش عائلة مكوّنة من أربعة أشخاص، زوج وزوجة وابن وبنت لهما، كان مسكنهم على تلة عالية. يذهب الزوج صباحاً إلى الحقل، يعمل في الأرض، يزرع ويحصد ويوفّر الطعام لعائلته.

مرض الزوج، توقف عن العمل بعد أن اشتدّ عليه مرضه، ووصل إلى مرحلة الخطر. كان من عادة الزوجة أن تجتمع بعد فترة الغداء مع أفراد العائلة، يتبادلون أطراف الحديث والقصص ويؤدّون الصلوات. وعند اشتداد مرض الزوج تولّى ابنه القيام بمهامه ولم يتمكّن من مشاركة العائلة صلواتهم؛ فشعرت أخته بالحزن.

في وقت اشتداد مرض الأب استشعر أفراد العائلة بدنو أجله، فأكثروا من الصلوات. شعرت ابنته بحزن شديد وأخذت تصلي طالبة إلى الله أن يشفي والدها. كان خطابها عفويّاً وبريئاً، قالت في دعائها: «يا رب، أنا أحب أبي وأحبك، ولا أريده أن يذهب إليكم»، وبقلب مفعم بالحب والبراءة قالت أيضاً: «أعرف أنّك مشغول كثيراً ولديك طلبات كثيرة، ولا أريد لوالدي أن يذهب إليك الآن»، كانت تبكي بدموع حارة وتقول: «إذا أخذت أبي لن أحبك بعد اليوم».

عاد أخوها من الحقل مساء وقد كشف الحزن وجهها البائس ونامت تلك الليلة بغمّ وحسرة. استيقظت في الصباح وسمعت أصواتاً من الغرفة المجاورة لغرفتها مفعمة بالفرح والسرور. زحفت إلى الغرفة ووجدت والدتها ووالدها مسرورَين. سألت أمها: «ماذا حدث؟»، فأخبرتها أنّ والدها أصبح بصحة جيدة ففرحت فرحاً شديداً وقد استجاب لها الله.

الصداقة

على مدى العمر تربط علاقات الصداقة الإنسانَ بالآخرين. الكثير منها يعبر مع عبور الزمن ويبقى منها ما يلازم حياته، ويُسقِط الإنسانُ بعضَها من حساباته لأنّها لا تلائمه، بعد أن يتعرف على صاحبها ويجرّبه. ويُسقِط بعضَها الآخر تطورُ الزمن ونفاقه وإن بقيت بعض ملامح ذكراه، فيحافظ الإنسان على القليل منها ويتمسك به، وأقل القليل يبحث عنه الإنسان.

وأهم الصداقات بالنسبة إلى الإنسان هي التي تأتي بها مراجعاته الأخيرة للاحتفاظ بها أو إلغائها.

أجمل ما في الحياة صديق يخلص لك، يفهمك دون كلام، يحبك دون مقابل، وفيّ لك في صداقته ولا يجامل في قولة الحق أحداً.

درس من الفئران

أحد المهندسين الزراعيّين في قرية بعيدة عن العاصمة، ركب قطاراً متوجِّهاً إلى المدينة، جلس بجانبه فلاح يحمل كيساً وضعه بين قدميه. كان الفلاح يهزّ الكيس كلّ بضع دقائق، فتعجّب المهندس من ذلك، فسأل الفلاح: «ماذا يحوي الكيس؟»، فأجابه الفلاح: «فيه فئران وجرذان سأرسلها إلى دائرة البحوث». استغرب المهندس ذلك وقال للفلاح: «لماذا تهز الكيس باستمرار؟»، فأجابه: «أهزه لِأُدخِلَ الرعب والتوتر إلى قلوب الفئران والجرذان، فلو تركتها دون أن أهزّ الكيس وأحركه لهدأت وبدأت تقضم الكيس لتهرب».

أسقط المهندس -بوعيه السياسيّ- ذلك على العالم العربيّ والاستعمار، قال: «إنّ المستعمرين لا يتركون العالم العربيّ بشأنه، فكلّما هدأ قليلاً يهزّونه ليبقى متوتراً وخائفاً».

عيد ميلادي

عدتَ يا يوم مولدي، لم أعد أصدق نفسي، تأتي سريعًا وتذهلني. عجزت عن تحديد وصف لك كونك تشكل عمري، هل أنت شمسيّ أم قمري؟ مريخيّ أم أرضيّ؟ غريجوريّ أم أرثوذوكسيّ؟ تفاجئني بعودتك وأفاجأ بحساباتك.

عدت يا يوم مولدي، أنظر إلى خطك البيانيّ، تطول في بعضه وتقصر في بعضه الآخر. أنتظرك كلّ سنة من سنين عمري، أجدك عالي المكانة أحيانًا، وأحيانًا أخرى متدني المنزلة. أنت يا عمر، ألست واحداً في زمن رزنامتي؟ أنا واحد في كلّ أزماني. عد لي واحداً بين الطوائف والمذاهب كلّها، لتكن عيداً أصيلاً يا مولدي واترك تقسيم الطوائف والمذاهب.

ها أنت عدت متقلِّبًا يا يوم مولدي، بأي حال تعود كلّ عام، عادت حليمة لعادتها القديمة أو بما مضى وليس في الأمر تجديد. حليمة، يا حليمة، ارحمي مَن في الأرض يرحمك من في السماء.

البنت وشجرة التين

كانت إحدى العائلات تسكن منزلاً حوله حديقة مليئة بالأشجار المثمرة، ومن ضمن العائلة فتاة تبلغ من العمر سبع سنين. مرضت الفتاة في أحد الأيام، أصابها الهزال والضعف وتوقفت عن الأكل. ومع الأيام ساءت حالها ولم تغادر فراشها. كانت الفتاة ترقب شجرة تين حول المنزل ولاحظت في أحد الأيام أنّ ورقةً من أوراق شجرة التين تسقط كلّ يوم.

كانت الأم ترقب ابنتها ويتولّد لديها شعور بالحزن. في أحد الأيام أبلغت الفتاة أمها أنّها ستموت مع آخر ورقة تسقط من شجرة التين، ولّد هذا الإحساس شعوراً لدى أمها أنّ ابنتها تعاني من أحاسيس لا تعرف مدى صدقها، لكنّ شجرة التين بقيت تُسقِط كلّ يوم ورقة من أوراقها، وكلّما اقترب العدّ الأخير زادت الفتاة خوفًا ورعبًا من يومها القادم.

عندما بدأ العدّ الأخير للأوراق شعرت الفتاة بقرب أجلها، إلى أن جاء دور الورقة الأخيرة، فعمدت الأم إلى تثبيتها بالشجرة بحيث لا تسقط في اليوم التالي، وبالفعل أفاقت الفتاة في اليوم التالي ووجدت أنّ الورقة لم تسقط واستمرت أياماً على هذا المنوال. تحسنت صحة الفتاة وابتعد عنها الأسى ودبّ الفرح بين جوانحها، وما هي إلّا أيام حتى عادت الفتاة إلى طبيعتها فحمدت الله على ما كان وعادت الأمور إلى مسارها وبقي أمر ورقة شجرة التين الأخيرة سراً لدى أمها.

بائع الجرائد

هي خيمة صغيرة في حيّ منعزِل من الأحياء الشعبيّة، اتخذها إنسان بسيط يتكسّب عيشه منها من خلال بيع الجرائد، كان يذهب صباحاً إلى مركز الجريدة ليحضر الجرائد ويبيعها، وكانت الجرائد توفر له دخلاً يعتاش ويصرف منه على عائلته.

كان المبتاعون يمرّون على الخيمة ويُصَبِّحون على بائع الجرائد، لكنّه كان يصمت ولا يرد التحية بمثلها كأنّه تعب من تلك المجاملات التي تتكرر كلّ يوم ولا تنتهي. تعوّد الناس على ذلك؛ فعمدوا إلى وضع قيمة الجريدة على الطاولة الصغيرة أمام البائع، وكان كلٌّ منهم يأخذ جريدته وينصرف دون سؤال أو جواب، وذلك ما كان يرضي البائع.

لاحظ بعض مبتاعي الجريدة شخصاً من طراز آخر، يقدّر الناس أنّه مثقَّف معروف في الحيّ، يمر كلّ صباح ويلقي التحيّة على البائع حتى إن امتنع الأخير عن الرد عليه بالتحية نفسها على الأقل، فعاتبه بعضهم قائلين له: «إنّه لا يستحق التحيّة»، وطالبوه بأن يكفّ عن ذلك. فقال لهم: «من واجبي أن ألقي عليه التحيّة رغم امتناعه عن ردّها»؛ فسألوه: «لماذا إلقاء

التحية من واجبك وليس من واجبه ردّها؟»، قال: «من واجبي أن أعلّم الناس الأخلاق لا أن يعلّمني البائع عكس ذلك».

هذه هي طبيعة المثقف الفاعل في المجتمع، الطبيعة التي قد لا يفهمها الإنسان العاديّ.

أنا مشكول

مشكولٌ، مشكولٌ، مشكولٌ، ولست في الحقيقة مشكولاً برضاي.

عندما تشبّ الثمام وتنهض كالرماح وتشول شَوْلاً، يُملّك علينا من لايدرك، فنصاب بجهالة مَن يثير الحابل بالنابل، وما عاد أحد يفهم المقصود وغير المقصود.

ذُحول على ذُحول، أذهب العقول، فويل لأمتي التي ما عاد فيها قوم رفيع يخمد جهل الجاهلين، بل بتنا أعباداً نُقَاد ولا نقود.

أبا الطيب، فيه من الفصاحة ما يجعله يوضح المقصود، وسيف الدولة يسوق الركب والجنود، وأنت تزيد الحمية وتحثّ الحشود! تفضح جهلنا بكرةً وأصيلاً بعد مئات القرون، وبعد أن ضحكت من جهلنا الأمم. لقد أخبرت دومستق الروم أنّنا أمة لن تستكينَ ولا تهونَ.

واحسرتاه! واحسرتاه! لم يعد بيننا مَن يجرؤ على قولك:

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي وأسمعت كلماتي مَن به صممُ
أنام ملء جفوني عن شواردها ويسهر الخلق جراها ويختصمُ

رحماك، رحماك.

يا معفر الليث الهزبر بسوطه لِمَنِ ادّخرت الصارم المسلولا؟

لقد نامت نواطير الأمة عن ثعالبها وجهالها، وبشمت النخبة وما تفنى العناقيد.

السلحفاة

عاش رجل صينيّ حياته منذ الصغر في إحدى القرى الصينيّة وهو يشاهد أنواع الحيوانات البريّة بمختلفها. أَحَبَّ سلحفاة كونها الأكثر مسالمة من غيرها، ثمّ أخذها وربّاها في المنطقة المحيطة بمنزله، وجد فيها الوداعة والأنس في الوقت نفسه. كان كلّ صباح يأخذها ويمشي معها، فأعجبته الحال وقد أصبحت رفيقة دربه.

ولكثرة ما خرج ومشى معها رغم كسلها، سأله الجيران: «من أين جاءك هذا الصبر الطويل لتمشي مع السلحفاة رغم كسلها؟»، فقال: «لقد زرت الأردن مرتين، يفصل بين المرة والأخرى عشر سنوات. في المرة الأولى سمعت أنّ الدولة ستنفّذ مشروع وسيلة نقل سريعة تمثل الباص السريع، وفي المرة الثانية بعد عشر سنوات وجدت الباص السريع على حاله، لم يحرك أحد ساكنًا في هذا المشروع، فتعلمت الصبر من المشرفين على تنفيذ المشروع، وراودتني فكرة أن أصبر على مشية السلحفاة كما صبر أهل الأردن على مشروع الباص السريع.

رحله افتراضيّة

كان خالد وعائلته يعيشون حياة هادئة في قرية تطل على البحر من بعيد. امتهن مهنة الصيد، إذ كان له قارب مجهَّز بعدّة الصيد هذه، مثل العديد من رجال القرية الذين امتهنوا المهنة نفسها، منهم مَن يملك قوارب صيد ومنهم مَن يستأجر. كانوا يذهبون في الصباح إلى البحر ويعودون في المساء محمَّلين بما اصطادوه.

عند وصولهم إلى شاطىء البحر يجهّزون مراكبهم ويتفقّدون شِباك الصيد والمجاديف، ويرفع كلٌّ منهم ساريته على القارب، لتعينهم على خط سيرهم في رحلتهم البحرية، ثمّ ينطلقون إلى عرض البحر، ويعمل كلّ منهم جاهداً على الفوز بنصيب أكبر من السمك. قسّموا أسبوعهم إلى يومَي عطلة للاستراحة وخمسة أيام عمل يبيعون خلالها تجّار المدينة ما يجمعون ويشترون احتياجاتهم من السوق.

كان سعيد الابن الأكبر لخالد يذهب غالبا مع أبيه إلى البحر، وقد تعلم المهنة منه حين كان يشاركه في مشواره، أي أنّه اعتاد على ركوب البحر وقد تحرر من عقدة الخوف من البحر. كان لـ«سعيد» صديق يُدعى «كمال»، غير أنّ كمال لم يعتد على ركوب البحر، لكنّ سعيد شجعه وحثّه على القيام برحلة معه ليكتشف طبيعة البحر.

كان كمال ينظر إلى زرقة البحر من التلة العالية ويرى اندفاع الموج إلى الشاطىء اندفاعاً هادئاً، يردّ الشاطىء موجاته كأنّهما يتبادلان الأدوار بهدوء وغبطة ممّا ولّد هذه الألفة بينهما، وهذا ما جعل كمال لا يستوحش البحر كثيراً، فهذا صديقه يذهب مع والده في الأيام معظمها، ويعود من حيث ذهب إلى منزله، ويروي له الكثير من الطرائف التي يشاهدها في البحر.

اتّفق سعيد وكمال على اليوم المحدَّد للرحلة. جهّز كمال نفسه في اليوم المحدَّد وذهب مع صديقه بمعيّة والد سعيد إلى البحر. وكالعادة تمّ إعداد القارب وأحضر والد سعيد سترة النجاة على سبيل الاحتياط، لكنّ الشكّ دخل إلى قلب كمال بعد أن قال له والد سعيد إنّها على سبيل الاحتياط فقط، فالبحر هادىء، لكنّ الموج يرتفع أحياناً. ارتاب كمال ودبت فيه علامات الخوف، إذ إنّه لم يعتد على ركوب البحر، وإنّما كان يراقب وصول الموج بهدوء إلى الشاطىء فقط وكيف يردّه الشاطىء من حيث أتى بهدوء ودون اضطراب.

انطلقوا إلى عمق البحر وغاب الشاطئ عن نظرهم. بدأ البحر يظهر على غير عادته، يبرز أنيابه وتعلو موجاته، والقارب يميل تارة الى اليمين، وتارة أخرى الى اليسار، يعلو ويهبط بغير اتزان، فدبّ الرعب في قلب كمال وبدأ سعيد يهدّئ من روعه بقوله: «هذا شيء عاديّ، يحدث أحياناً كثيرة في البحر»، يقول كمال: «كنت أهدِّئ من روعي، لكنّني -في

المقابل- كنت أرى قلوبهم جامدة وصلبة». كان والد سعيد يرمي الشباك ويسحبها ويرمي ما فيها في القارب، أمّا كمال فكان يلتصق بالقارب ويتشبث به ولا يتحرّك ولا يحرِّك ساكناً.

شعر كمال بشيء من الدوار، فقال له والد سعيد: «أغمض عينيك فلا تشعر بشيء»، لكنّ كمال كان يعضّه القلق ويقول في نفسه: «جئت لأستمتع برحلة بحريّة ولا يبدو عليّ ذلك»، ويكاد قلبه ينفلت من بين ضلوعه، ثمّ بدأ يتقيأ وموج البحر يزداد عنفاً وغضباً. كان يتوقّع أن يرى المشهد الذي اعتاد أن يراه من الشاطىء، إذ كان الموج هادئاً ناعم الملمس. أدرك والد سعيد أنّ الخوف يتلبس كمال وخشي عليه أن يصاب بمكروه.

غطّ كمال في نوم عميق وتلبّستْه كوابيس تقول إنّه سيغرق في البحر وإنّ سمك القرش سيتناوله من القارب خاصة، وكان الموج يرتفع ويهبط بالقارب بصورة مزعجة ولا يتوقّف، تندفع موجة إثر موجة، هذا كلّه ضمن الكوابيس التي ضيّقت عليه الدنيا.

عاد القارب بمَن فيه إلى الشاطىء والكوابيس تكاد تخنقه، وعندما وصلوا الشاطىء اقترب منه والد سعيد، هزّه بيده بلطف وقال له: «نحن لم نتحرك بعد إلى البحر، فكيف نمت طوال هذا الوقت ولم تشعر بنا؟»، وذلك بقصد التخفيف عليه من الصدمة، فاستبشر كمال خيراً لأنّه لم يدخل البحر وظنّ أنّه كان في حلم طويل. وقال لـ«سعيد»: «البحر مخيف،

لا أريد أن أجازف. اذهبا وأنا سأنتظركما هنا». لكنّ كمال فوجِئ بكميّة السمك الموجود على القارب، وبدأ يستعيد وعيه من كابوس كاد يقضي عليه، ووجد أنّه لم يغادر فراشه وأنّ كلّ شيء بخير، وحمد الله أنّه قضى نومه العميق في رحلة افتراضيّة وكابوس جعله يعيش ليلة موحشة.

قبل أن ينتصر أحدهما على الآخر

ولله في خلقه شؤون!

استطاع الفكر الإنساني أن يحلل الكثير من الظواهر السلوكية للحيوانات وانعكاساتها على محيطها وطرق التعامل والتفاهم في ما بين أفراد الجنس الواحد منها (بما في ذلك الكائنات الحية الدقيقة). كما رُصدت الظواهر والسلوكات ذاتها وانعكاساتها على غيرها من الأجناس الأخرى؛ وذلك رغبة منه في معرفة حالة الترابط والتعايش بين الجنس الواحد، ثم غيره من أجناس الحيوانات الأخرى، ومدى استشعارها للخطر أو الأمان والخوف أو الطمأنينة؛ كونها في وضع أدنى من أن تتخاطب كالإنسان. نحن نلاحظ أن بعضها يخاف، وبعضها الآخر يخيف، وبعضها يحب السيطرة وأخرى تتحاشى الدخول في مبارزة مع غيرها. لكن مملكة الحيوان هي غابة في تنوعها، وتعيش تحديات لا ترحم، وهي لا ترحم بعضها البعض، لكن دورة الحياة والطبيعة مستمرة.

أما عمليا فكل جنس منها يستشعر مكمن الخطر ممن يتسلط عليه ويتحسب له، لكن في النهاية فإن العديد منها تذهب ضحية الافتراس لمن هو أقوى، وقد يسعف الحظ بعضها بالهروب قبل أن تقع في الفخ. ولا يخلو بعضها من الذكاء الذي يدفعها للاختباء أو الهرب عندما تستشعر الخطر، أو ترسم خططها عندما تصطاد، وتميّز بين ما عليها أن تأكله وما

لا تأكله. فمثلا آكلة الأعشاب تميز بين العشب الضار من النافع من النباتات التي تأكلها، وبالتالي تفرق بين الذي يصلح والذي يؤذي وتعمل على تجنب المخاطر، لكن عدم تمتعها بميزة العقل التي وهبها الله سبحانه وتعالى لبني البشر يحدُّ من قدراتها، إذ لا تستطيع أن تطوّر وتغيّر طبيعة حياتها كالإنسان .

السؤال المثير: لماذا ميزة العقل للإنسان فقط؟ ذلك باعتقادي لضرورات البعد الإنساني الذي من المفترض أن يتحلى بها البشر. ومع ذلك يُلاحَظ أن الكثيرين من البشر لا يتحلّون، أو لا يريدون أن يتحلّوا بنعمة العقل، فيواجهون مشاكل كثيرة، لم يستطيعوا التخلص منها رغم التطور الكبير في حياتهم.

مشكلة البشر الكبرى أنهم يتوحَّشون في أحيان كثيرة أكثر من وحوش الغابة، فالوحش الواحد في الغابة قد يفترس فريسة واحدة ويكتفي ويترك البقية في أمان، لا بل يتشارك معه في هذه الوليمة وبالتراضي العديد من فصيلته أو من فصائل أخرى، أما الإنسان قد يفترس أُمَّة كاملة، وقد يتوحش شعب على شعب، وأمة على أمة، فتستبيح إحداها الأخرى عن قناعة ورضا ورغبة، وبالوقت نفسه عن حماقة مجبولة بالغباء والأنانية .

في محيط الحي الذي أقيم فيه مع غيري من السكان، وعلى بعد بضعة عشر مترا من سكني، توجد باحة مكشوفة فسيحة ومستوية خالية من أي بناء، تخضرُّ بعض أجزائها شتاء، ويزيدها الربيع كسوة منه، وهي تشكل

مرقدا وملجأ لكثير من مركبات السكان المقيمين حولها، فهي باحة نشطة لا تعرف الهدوء إلى ساعة متاخرة من الليل. عبور مكثف للمركبات من حولها، وحركة البشر لا تنقطع على أديمها ومن حولها، بما في ذاك حيوانات أليفة من القطط التي لا تترك مسرحها بحثا عن ما يخفّف جوعها، وتتبّع وتراقب ما يرد إلى الحاويات من نفايات، عدا عن قطعان من الماشية التي ترتادها بين الفينة والأخرى وهي مسوقة بأمر صاحبها لاقتيات بعض الأعشاب التي تغطي سطحها، بدءا من فصل الربيع حتى نهاية فصل الصيف .

عند الفكاك من العمل ولحظة العودة إلى المستقر والسكن، شهدتُ واقعة يمكن تسميتها «موقعة الباحة»؛ كنت أقترب من المكان رويدا رويدا قاصدا تهدئة ماكينة المركبة التي أقودها (هكذا تعلمنا وتدربنا على قواعد السير وأسلوب القيادة عندما نريد إيقاف المركبة، إذ علينا أن نتدرج في تخفيف سرعة المركبة إلى أن تحط في المكان المخصص للوقوف عليه). باقترابي من الموقع كان عليَّ أولا أن أختار مكانا مناسبا لإيقاف المركبة خلال ساعات المساء والليل، بما يطمئن ويريح ضميري كوسيلة لضمان سلامة مركبتي من حراك الصبية والكرة التي يتقاذفونها والتي لا تهدأ، أو لا يراد لها أن تهدأ. أطفأت محرك المركبة، ثم أغلقت بابها وطفت حولها متفقدا محيطها، وبدون أي فاصل زمني كان يتخلل مسامعي ذبذبات أصوات تميل إلى ما يشبه بكاء الأطفال، وانتابتني

الدهشة لخلو المكان من البشر. الصراخ يعلو ويخفت ويعلو أكثر من جديد. شنفت أذني لمعرفة المصدر الذي ينبعث منه الصوت، وجُلت ببصري أطراف الباحة إلى أن حط نظري على موقع الصراخ الذي لمَعت منه عيون نارية تقدح كالشرر. حدقت أكثر في المشهد، الوضع لم يكن طبيعيا، لمحت هرَّين متمايزين، أحدهما يختلط فيه السواد بالبياض والآخر لا تستطيع منحه لونا قاطعا بعدما تسلل أول الليل على آخر أطراف النهار، لكن يمكن القول دون تأكيد بالجزم إن لون الهر الثاني يميل إلى ما يقترب من اللون الرمادي، ويغشاه شيء من البياض.

المشهد كان يستحق أن يسجل على شريط مصور لمعرفة ما ستؤول إليه الحال. كانا يتجاذبان في ما بينهما بين أخذ ورد بالصراخ والمواء المستطال كعلامة تهديد ووعيد وتحدٍّ من الطرفين، علّ أحدهما يقنع أو يُخضع الآخر، فيغادر تجنبا لنشوب عراك يكون للمخالب فيه دور خطر على الاثنين. أو يثبتان على التحدي فينالان ما ينالان من إيذاء أو تشويه قبل أن يهزم أحدهما الآخر. المشهد يتطور إلى الأسوأ كما يبدو من الموقف، فقد كان هناك إصرار على تمسك كل منهما بموقفه وعناده، وعلى ما يبدو لم يقتنع أي منهما بكل هذه المخاوف، أو أنهما لم يدركا نتائج الصدام إذا وقع بينهما ولم يتنازل أي منهما عن حقه في أن تكون له السيطرة، وكأن الخسارة مستبعدة من حسابهما. كنت أتخيل أن طرفا آخر

من فصيلتهما لو حضر قد ينهي الإشكال القائم بينهما، وتنتهي المسألة بلا غالب ولا مغلوب، لكن لم يحضر من تخيلت حضوره.

على ما بدا لي من كامل المشهد، فإن المتخاصمين قد صمَّما على خوض غمار واقعة بحسب معطيات القوة التي يفسّرها كلٌّ منهما لصالحه، ورغبة وتصميما من كل منهما على الفوز مهما كان الثمن وبلغت التضحيات. لعل الخبرة أيضا علمتهما أن التراجع والانسحاب له نتائج مستقبلية لا ترضي غرورهما ومدى المنافسة بينهما في قادم الأيام. تخيلت ما يدور بذهنهما، فعدم حسم الأمر يعني بقاء المشكلة معلَّقة إلى جولة أو جولات من المواجهة، فمن يدري، قد تكون المواجهة القادمة في الغد أو بعد الغد أو بعدهما من الأيام إذا لم تتضح الأمور في هذه الساعة ويعرف كلٌّ منهما موقعه من الآخر، وكأنهما يقتديان بالمثل القائل: «لا تؤجل عمل اليوم إلى الغد»، خاصة أن النزاع بينهما قد طفا على السطح ويجب أن يعلن للعموم من المسيطر على الساحة ليخليها الآخر عند حضور صاحب السلطان الذي لن يقبل بوجود منافس له في ذات الموقع. بداية السجال كما بدا لي كان تقييميًّا؛ أي دراسة كل طرف منهما لإمكانات الطرف الآخر لمعرفة مكامن القوة والضعف. وقد تكون حالة الاستطالة في الصراخ والمواء نوعا من المراوغة وجس النبض، أو لكسر حاجز الخوف، أو لإتاحة الفرصة لأحدهما للتنازل عن كبريائه والانسحاب حقنا للدم في نزال غير معلوم النتائج أو من يكون الفائز فيه،

لكن كل هذه التفسيرات كانت تنطلق من مخيلتي وبعيدا عما يدور بذهن كل منهما .

بدا المشهد مثيرا والصورة حقيقية ومبهرة لكنها مؤسفة بذات الوقت، والزمن يمر بتثاقل إلى أن كانت الجولة الأولى، هجوم من أحدهما بإحدى الأيدي وردٌّ من الآخر بمثلها، ثم محاولة التفاف على الآخر يتبعها حالة تيبس وجمود للأجسام، والوجوم أحيانا أخرى مع ترك فاصل زمني لتقدير الموقف بحسب تحليلي الشخصي لتبدأ المنازلة من جديد.. صراخ بالمواء والولولة من أحد المتخاصمين يتلوه ردٌّ من الطرف الآخر. يتكرر المشهد لكن بطريقة أخرى، محاولة قفز في الهواء من أحد الطرفين، وانبطاح على الظهر من الآخر ورفع القوائم إلى الأعلى لصد هجمات الخصم، وعندما يمتنع على أحدهما التمكن من الآخر يعود الطرفان إلى ما كانا عليه.

ما كانا عليه ليس بالأمر الهين والسهل منذ البداية، فعملية النزال لم تكشف عن جديد في مراكز القوة، ما يعني ضرورة الحذر والاستعداد والبقاء في حالة من التحفز استعدادا لجولة أو جولات أخرى. هو حب الفضول الذي قادني إلى التأني ومشاهدة مبارزة لم أشاهدها من قبل. إنها حالة نزال واشتباك لكنها ليست بشرية. الصورة والانطباع العام للمشهد يؤكد أن لدى المتخاصمين من الصلافة ما يدفعهما إلى المثابرة، ولا أعرف إذا ما كان للمكابرة حيز في الأعراف والتقاليد المتبعة في عالمهما،

ففيهما من الجرأة ما دفعهما إلى حالة التحدي هذه. إنه التحدي التصادمي، وقد يكون حظهما العاثر قادهما إلى هذه الموقعة التي لا يُقدّران نتائجها وكلفتها، فقد تكون الكلفة باهظة لكليهما بحيث تتجاوز الخرمشات الخارجية لتبلغ عين أحدهما أو شجًّا في رأس الآخر، فالاحتمالات كثيرة .

مشهد العراك والاشتباك الفعلي هو لحظات، لكن الاستعداد له يأخذ وقتا أطول بالمواء والولولة مع إشارات مختلفة هما يفهمان ما تعنيه. كمتتبع للمشهد كنت أرى أجسادهما مشدودة وكأنها متحجرة أو متخشبة، الذيل ممدود ومتصلب، وفم أحدهما على أذن الآخر يصرخ به وكأن الآخر لا يسمع، وما إن ينهي الأول مواءه حتى يبدأ الآخر بالصراخ، وأحيانا يمتزج صوتاهما معا لينتهيا إلى جولة جديدة من المنازلة. تكرر المشهد أمامي ثلاث مرات، يبدو أنهما يتبعان قواعد خاصة في النزال والعراك ليست غريبة عنهما. قلت في نفسي إن نزاعهما قد لا يتعدى الرغبة في الاستئثار بزوائد لحم على عظم في الحاوية. واذا تجاوزنا الرغبة تلك إلى غيرها، قلنا إنها حب السيطرة على الميدان وإثبات مركز القوة، وربما في ثالثها تحديد منطقة نفوذ تمنع الآخر من الاقتراب منها.

خواطر كثيرة تدافعت إلى ذهني، مرجعيتها أن الحيوانات تحمل روحا وإحساسا، وأن وجودها لم يكن عبثا على وجه الأرض، مما دعا إلى قيام جمعيات الرفق بالحيوان، عدا عن أن الكثير من البشر يربّون مثل

هذه الحيوانات وغيرها في بيوتهم أو في حظائر خاصة، ويعتنون بها لسبب أو لآخر، وربما بحسب قيمة المنفعة المتحققة منها مثل كلاب الحراسة، وعمد البعض إلى اعتبار بعض الأنواع مصدر تسلية وألفة مع الإنسان حتى إن محلات السوبر ماركت تقتني طعاما خاصا بها.

تعززت لدي منذ وقت مبكر نزعة الرفق بالحيوان، فرغبت في تخليص المتشابكين من أي أذى قد يلحق بأيٍّ منهما. كان لا بد من التدخل لحسم الموقف بلا غالب ولا مغلوب ولو تمنَّع أي منهما، ففي ذلك ما يريح ضميري على الأقل. بدأت بالاقتراب منهما علهما يفترقان، لكنهما ثبتا في موقعهما إلى أن ضاقت المسافة بيني وبينهما إلى ما يؤكد أنني أتقصدهما، وكانت الخطوة الأخيرة التي أرغمتهما على الافتراق بعد أن نهرتهما بنبرة جافة. وقد استجابا وذهب كل واحد في اتجاه دون حاجة مني لأن أقدر موقف كل منهما لهذا الإجراء، إن كان في صالح أي منهما أو أن عليهما أن يقدما الشكر لي لاخراجهما من هذه الورطة. لكنني عذرتهما مسبقا لتعطل لغة الكلام بيني وبينهما، وهو ما يحدث بين البشر أحيانا قبل الحيوانات، واكتفيت بالمثل القائل: «اعمل مليح وارمِ في البحر».

تلك حالة دعتني للوقوف لوهلة استحضرت فيها التاريخ، وعاد بي الذهن قرونا إلى الوراء مستعرضا تاريخ البشرية من الأمم والشعوب المختلفة، مقربا المسافات بين أحداثها الكبيرة وطي صفحات الزمن كطي الأوراق في دفاتر السجل على كثير من الأحداث، ومستذكرا بذات

الوقت الخصومات والحروب وما جرّت على بني البشر من ويلات إلى اليوم .

لم أجد أن فكر الإنسان قد تطور مع الزمن إلى ما يسعد الإنسان ويرفعه كما أراد له رب العزة حين كرّمه بأن استخلفه على الأرض، وإنما عاش الإنسان وما زال يعيش بعقليته الأنانية والنفعية وحب السيطرة، وكأنه لا يملك العقل الذي ميزه الله به عن سائر المخلوقات، ولم يرتق إلى مستوى يعلو به على مستوى المخلوقات الأخرى. وسألت نفسي: ما الفرق بين الإنسان وباقي المخلوقات إذا تساويا في مثل هذه السلوكيات اللاواعية والأهواء النرجسية والنفعية؟ فوجدت أن إنسانية الإنسان كانت وما زالت تائهة وتتأوه لأي ألم إذا لم يكن من صنع يدها البشرية، ولا تتأوه أو تندم إذا كان من صنع البشر.. إنها قساوة القلوب.

من والد الى ولده.. علمتني الحياة

أي بني، بعد أن طوى الزمن صفحات السنين من عمري، استفاق الذهن قبل أن يطمر الزمن ما كان قد تدثَّر في دهاليز الذاكرة المغرقة في التخفي، وأزاح شبورة الغمام والضبابية عنها، وكشف سترها وربط بينها وبين ما أشهده من واقع حال اليوم المختلط والملتبس والمتراوح في التناقضات والسلوكات. والكل يدعي أنه في السليم، حتى ما عدت أنا في خضم هذا التموج والتقلب في منظومة القيم الإنسانية التي تربيت عليها، وأصبحَتْ في نظري مثلي الأعلى في الحياة: كالعدل والمساواة والحرية والشفافية والمصداقية والإخلاص والوفاء واحترام الكرامة الإنسانية، وتمنّي الخير للضعيف قبل القوي وبالتالي المحبة لجميع الناس. فقد قادت العولمة المنفلتة -كانفلات الإلكترونات من نواتها- الكثير من المجتمعات الى حافة الهاوية، ووصلت في بعض أمورها الى خندق الزندقة، فتأثر الكثير من الناس بها، وغرقوا في توهيمات الحياة وتناقضاتها، وسيطرت النرجسية على وجدان الكثرة الكاثرة من بني البشر، بحيث اعتبرت الفضيلة والقيم الإنسانية في كثير من الأحيان حالة شُبهة أحيطت بالعوار من كل الجوانب.

لم يكن لدي الوقت لألاحظ أنني أشيخ، حتى طاردتني أقوال الأديب خوليو يامانياريس : «يعتقد الواحد منا أن الزمن نهر تتدفق مياهه ولا ينتهي

أبدًا، لكن تأتي لحظة يكتشف فيها الإنسان خيانة السنين، ينتهي الشباب فجأة ويذوب الزمن ككومة من الجليد اخترقها شعاع. منذ تلك اللحظة لا يعود أي شيء إلى ما كان عليه، تبدأ الأيام في القصر ويتحول الزمن الى بخار زائل ويلفّ القلب ويخدّره شيئا فشيئا، وعندما نتنبه يكون الوقت قد مضى، ولم يعد هناك وقت للتمرد». وأصبح أمس الذي مرّ على قربه مستحيل المنال ويعجز أهل الأرض عن رده.

يحدوني أمل يتراوح مداه ما بين ضئيل وكبير بأن شخصك سيتوصل الى فهم ما أريد، بالرغم من بعض الرمزية التي قد أسبغها على نقل أفكاري إليك، فأحيانا لا يرى الإنسان معنى لأي شيء كما يقول أرنستو ساباتو. وأنا بدوري أقول: ليس لكلماتي هذه من معنى لو لم أغرف من وعيك بمغرفتي. هذا الوعي قادني الى لملمة أفكاري وخواطري وما ترسب في دهاليز ذاكرتي، وما دونت على قصاصات مبعثرة من الورق، قد جمعتها هنا من حيث قدَّرتُ أنها تنفعك بعدما لمست فيك الموضوعية والتجرد والوعي، فإذا حازت قناعة منجزة منك أكون قد أصبت الهدف والغاية، ودون ذلك خرط القتاد.

ففاصل الزمن العمري في مفهوم جيلينا للحياة قد يختلف في الكثير ويتوافق في اليسير، لكني أشعر أنني خرجت عن الإطار المعتاد وطورت عن قناعة مفاهيم عصري الذهنية لتنخرط وتتأقلم مع ما هو متقدم في عصرك، لقناعتي بما قاله أحد المفكرين: «ليس الإنسان القوي أو الذكي

هو القادر على مواجهة مصاعب الحياة، لكنه الذي يتأقلم بشكل أسرع معها». ذلك أنني عبرت البحار والمحيطات، وتلامست ذهنيتي مع مختلف الثقافات، فتشكّلت لدي قناعة تامة بقيمة إنسانية كبيرة لا يعيها أغلب الناس أو يتجاهلونها أو يهملونها، وهي قيمة الاعتذار عند ارتكاب أي خطأ. كثيرون يعتبرون أن ذلك ينتقص من كبريائهم. لقد وجدت من اعتادوا ذلهم لأنفسهم لأتفه الأسباب فنما كبريائي، كثيرون يسيرون كالقوافل الهائمة فيسلمون أمر القيادة لمن يتقن النفاق فيُفقدون الكرامة الإنسانية معناها. هي قناعات لم أستطع التخلي عنها، قد يسمّيها البعض عباطة لكني أشعر بارتياح بال كبير لهذه العباطة.

المسألة بالنسبة لي الآن على الأقل، ليست محاولة للخروج من عقدة ذنب تلازمني، بقدر ما هي تأشير لمرحلة لها حكمها، واستشراف قد يعنيك ويعينك، وحاشا لي أن أراوغ في هذا الموقف، فصديقك من صَدَقك لا من صدّقك، وبقدر التزام الوالد المعني بحياة ورفاه ولده سأضع النقاط على الحروف بحسب ما فهمت أنا من عبث الزمان في حياة البشر، وأترك الغوص في تحليل الأمور لوعيك وفهمك .

بداية سأفتح نافذة لأطل منها عليك وأقول: المخيال في مرحلة الشباب وقبل تحمّل المسؤولية تبدو له الأيام ليّنة وطيّعة مهما تكن عصيّة، وعند تحمل المسؤولية يبدأ اللّيّن منها يقسو ويعصى عليه. محاولة التمرد على الزمن قد تخبو لكن دون يأس من النجاح، المهم هو

خروج الإنسان عن إطاره وحدوده المعتادة بتأهيل الذات والقفز على السنين بالجد والمثابرة في سباق معها ما أمكن ذلك. قد تطول اليد العنب أحيانا وتتذوق الحصرم في أكثر الأحيان. فليبقَ الصراع لأجل النجاح والحياة حادًّا وجادًّا، فالفاصل بين تطويعها من عدمه قد يكون شعرة معاوية، قد يطولك جحود الزمن (وفي ظنك أنه لا يزال معك) قبل أن ينصفك في جهودك. رغم واقعة الجحود، عليك أن تبقى واقفا شامخا كالنخيل، ورافضا لحكم جاحد للحق مهما تمادى، وإن حاول الشاعر تعزيتك بقوله:

فلا تأسف على غدر الزمان فكم رقصت على جثث الأسود كلاب

فلكل شيء نهاية وعلى قدر أهل العزم تأتي العزائم.

الآن أتحول من النافذة إلى الباب الواسع المشرف على فضاءات الحياة. ليس لدي من النواهي والنصائح ما يقيك أفعال الزمن، إلا أن تحذر خداع الأيام المنطلقة كالسهام دون توقف. تجارب الحياة لدي انثالت ناعمة مع العمر، كانت تنسرب كما المياه من بين الأصابع، وكانت هي الحقائق التي اطلعت على الأخطاء، وهي قد تكون عبرة لك إذا أردت أن تعتبر. الآن وقد أقعدني الزمن عن طاقات الشباب ومضى من العمر جلّه، ولم يبق منه في ظني إلا أقله، إذ مُنْحنى الصحة يتجه نحو الانحدار الذي أسعى لكبح جماحه بكامل تقنيات العصر المعولم في محاولة لسد كامل منافذ الانحدار وبرجاء وتمنيات الشاعر :

ألا ليــت الزمــان يعــود يومــا لأخــبره بمــا فعــل المشــيب

تمنيت أن يعود ذاك العمر الذي فرّ مني لأعيد حساباتي معه، وعلى الأقل أن أحاسب الأيام والسنين التي مضت هباء كسهام عابرة دون وعي ودون موجّه يرشدني إلى أن أصنع شيئا يشار إليه بالبنان، لكن هيهات لم يعد هناك وقت للتمرد.

الآن أضع يدي على كتفك يا بني لأدفع فيك وبك قوتي التي أُهدرت دون إنصاف -مستهينا بعوامل الهدر حينها- وأقول: مهما تكن قناعات الآخرين بك كن موضوعيا وافعل ما تفعله بسلوكك المعتاد كما هو، لأنك لا تعرف أي جزئية من العمل هي التي يساء فهمها من الآخرين، وأيها ستعود عليك بالإطراء والخير.

أحيانا تجد نفسك تبذل جهدا خارقا وتبدو الحياة غير منصفة لك، وأحيانا تحسن للآخرين وينقلب إحسانك عليك، المثل يقول: «اعمل معروفًا وارمِ في البحر».

كن كالنخيل على الأحقاد مرتفعا يُرمى بصخر فيعطي أطيب الثمر

فأنت كإنسان، أنت أنت ما تفعله وما تمثله، اقتدِ بالأشخاص الذين يُشِعّون بهجة وفرحا، فسوف تجد علامات وأمارات السعادة بادية عليهم ومحفورة في وجوههم. «رافق المسعد تسعد» في عرفنا، «من يرافق البوم يدله على الخراب». إذا نظرت الى الأشخاص الذين يمارسون التعدي أو الذين يتغطرسون ويؤذون غيرهم تجد علامات البؤس والمرارة والألم

على وجوههم، لا يغيّر الله ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم. إذن افعل ما تعتقد أنت أنه الصواب بموضوعية وتجرد، العدل والظلم لا يلتقيان، والحكمة تقول: الظلم له يد وليس له فؤاد، له يد تبطش وقلب لا يرحم. الخليفة الفاروق حذر في رسالة الى أحد ولاته بقوله: «واسِ بين الناس، حتى لا يطمع شريف في حيفك ولا ييأس ضعيف من عدلك». أبعد عن ذهنك قول الشاعر :

والظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفة فلعلَّة لا يظلم

فهذا هراء، فالعدل يمهل الظلم ويعلي الحق والحقيقة ولو متأخرا.

يحتاج الانسان أن يكتسب المزيد من الشجاعة لمواصلة الطريق الذي رسمه لنفسه. الوعي لا ينقصك في هذا المضمار، لكن لا تنسَ أنك تحتاج لمواجهة التحدي والخوف من نظرات الآخرين إليك. واعلم أن الصداقات أنواع: صديق كالغذاء تحتاج إليه دائما، وصديق كالدواء تحتاج إليه أحيانا، وصديق كالداء لا تحتاج إليه أبدا. إذا كنت صاحب رأي وموقف مدعوم بالوعي والموضوعية لا تكترث بالثرثرة غير المسؤولة من حولك، ولا تأبه لكلام الناس، فخير دليل لك بهذا الشأن هو قول الحسن البصري: «حين ولدت ولدت وحدي، وحين أموت أموت وحدي، وحين أوضع في القبر أوضع لوحدي، وحين أحاسب بين يديه تعالى أحاسب وحدي، فإن دخلت النار دخلت وحدي، وإن دخلت الجنة دخلت وحدي، فمالي والناس».

جدد طموحاتك وأساليبك وخططك، ولا تبقِ حياتك على وتيرة واحدة للوصول إلى أهدافك. وإذا شعرت بأنك توقفت في مرحلة ما فانت بحاجة إلى لكزة ودفعة تشحنك وتدفعك لمواصلة المسير في الطريق الذي رسمتَه نحو الهدف والغاية التي تريدها .

هناك الكثير من القيود النابعة من العادات والتقاليد والمجتمع، البعض منها إيجابي والبعض الآخر سلبي. لا تكترث للسلبي منها، فأسباب النجاح فيك وحدك. لتكن دائما في حالة تعلّم ونموّ وتطور وتوسيع وتنويع في التجارب، ففي صعودك يصعد الناس معك وفي نزولك تنزل منفردا .

لا تقعد عن السؤال والاستفسار، قد يكون السؤال هو مفتاح الغامض أمامك، وفيه روح المبادرة والتفكير مليا للوصول إلى النتيجة المنطقية والمرضية. كلما ازددت فهما لسلوكات وتصرفات ورغبات الآخرين ازددت قدرة على اتخاذ رد الفعل المناسب تجاههم، وإلا خضعت لردود الأفعال وسوء الفهم وإساءة التصرف. سل نفسك دائما عن سبب اعتقادك أنك مخطئ أو مصيب لتتمكن من التراجع عن الخطأ.

الأشخاص الناجحون في الحياة (وليس بالضرورة النجاح المادي) لا تستطيع أن تسلبهم فرحهم الداخلي، أما التظاهر بالنجاحات فثقب أسود يبتلع ويدمر شخصية الإنسان ويحط من قدره. الحكمة كما يقول تمبلر: «لا تعني عدم اقتراف الأخطاء وإنما تعلُّم كيفية الإفلات منها». كل

شخص ناجح يملك الحس الداخلي بالقوة في نفسه وعزيمته التي أوصلته إلى هذه النتيجة دون الحاجة لإطراء الآخرين. إن قيمة الشعور بالاستحقاق يرتبط بالثقة بالنفس، أنا كنت دائم التفكير بهذه القيمة وأدّعي الاستحقاق ولم أبلغ ما أريد حتى اليوم، دائما كنت أشعر بأنني أستحق الأعلى والأفضل برغم العثرات المحبطة في الطريق، قناعتي أن من يرضى بأدنى مما يستحق لن يتقدم خطوة الى الأمام فلا تكن من هؤلاء.

أما قولي لك في ما يعنيك شخصيا كرب لعائلة أنت مقبل عليها، فهو نصيحة وردت على لسان أحد الحكماء، إذ جاءه شاب يستنصحه حول الصفات التي ينبغي أن يتجنبها في شريكة حياته فقال له: «يا بني ! لا تأخذ الأنّانة، ولا المنّانة ولا الحنّانة ولا الحدّاقة ولا النمامة». وهنا طلب الشاب إيضاحا أكثر فقال الحكيم : أما الأنّانة فهي التي تُكثر من الأنين بسبب أو بدون سبب، أما المنانة فهي التي تكثر من المنّ على زوجها كأن تقول لزوجها لولاي لم تصل الى ما وصلت إليه. أما الحنانة، فهي دائمة الحنين الى أهلها وذويها على حساب راحة زوجها. أما الحدّاقة فهي التي تحدق بكل شيء وتريده لها وتتمنى أن تمتلكه، أي أن عينها فارغة. أما النمامة، فهي التي تعشق النميمة ما استطاعت الى ذلك سبيلا! عندها قال الشاب للحكيم: «كيف لي أن أكتشف هذه الصفات في الفتاة التي ساختارها زوج المستقبل؟». ابتسم الحكيم وقال: «هذا ما أريد أن أصل إليه يا بني، تروَّ ودقق ولا تتعجل في اختيار شريكة حياتك، خذ الفتاة

الصالحة المتواضعة والفاضلة، واستقصِ أخبارها بكل وسيلة، وضع نصب عينيك الحكمة القائلة: «في التأني السلامة وفي العجلة الندامة».

اعمل بقاعدة تفاءلوا بالخير تجدوه، ولا تجعل للتشاؤم طريقا نافذا الى عقلك وقلبك. حتى الفلاسفة والمفكرون قد يصدمونك ببعض أفكارهم الخارجة عن منطق الحياة، كما ورد على لسان جبران خليل جبران: «ليت أني من الأزل لم أعش هذه الحياة، عشت فيها ولم أزل أجهل أنها الحياة، ليت أني من الأزل كنت روحا ولم أزل». ومن ذلك ما ورد على لسان أبي العلاء المعري: «الحياة هي ما تقرر أن تكونه وليس ما تقرره الأيام لك».. حماك الله سبحانه من غدر الزمان والإنسان، والسلام.

خارج نطاق العولمة

قد يكون من المحزن أن لا يتمكن إنسان هذا العصر من أن يتفاعل مع واقع الحياة المعاصرة، ذلك أن من يغيّب نفسه أو تغيّبه الأقدار، أو يُغيَّب بحكم ظروفه وأوضاعه الخاصة يعيش في حرمان الجهالة، وهي آفة لا يتمناها الإنسان لنفسه أو لعزيز عليه، فالقانون الإنساني مثلًا اعتبر أن من يقل عمره عن سبع سنوات إنسان غير مميز، وهناك من تجاوز هذه السن بسنوات وعقود، تلاحقه هذه الصفة في عصر العولمة.

هناك ثلاثة أجيال بمعيار العولمة: جيل تربى في عصر العولمة ووعى أبعادها، وجيل مخضرم داهمته العولمة مداهمة، ومن هؤلاء من اندمج فيها ومنهم من لم يندمج، وجيل سبق المخضرمين، يعيش عصر العولمة، لكنه لا يستطيع أن يتعامل معها.

زحفت العولمة على شكل تسونامي بكافة ألوانها ومجالاتها الثقافية والفكرية والعلمية والمعرفية والاقتصادية. بعض الأمم صمدت أمام قوى العولمة وأخذت منها ما أخذت، وتعاملت مع ما لا تريده بحسب قناعاتها، حتى طالبان أفغانستان تعاملت أيام عزّها مع الشق العسكري للعولمة، وحجبت ما حجبت من معالم الحياة الأخرى.

ما أثار هذه التساؤلات حالة لا نحبذ قولبتها، فهي حتى في باب الإيجابيات جارحة.. قبل أيام معدودة كنت في مكان فسيح (قاعة) تؤمّه مختلف الأطياف من المواطنين، ورأيت مواطنا في الخمسينيات من العمر يعتمر كوفية (شماغا) بعقال يميل بشكل بيضاوي على رأسه. كان ذا ملامح حادة وقد لفحت حرارة الشمس وجهه، أما العيون فثاقبة رغم أنها متعبة في حجراتها. وكان يتجول في القاعة بائع يعرض ماء بكاسات بلاستيكية مغلقة لمنع انسكابها، وينادي: «ماء ماء». اقترب منه صاحبنا وتناول إحداها وبدأ يطفئ ظمأه في شدة حرارة الجو. جال البائع جولة وعاد للرجل الخمسيني فتناول منه كأسا أخرى. طلب البائع من صاحبنا ثمن الماء، فوقع عليه الطلب كالصاعقة؛ تبرم واستغرب أن أكواب الماء تُباع، وأبلغ البائع أنه لو حضر لمكان إقامته فسيملأ له بئرا من الماء العذب، وأقسم أنه لن يشرب القدح الثانية، ودفع بها بعيدا عنه. بالمقابل كانت هناك علامات تعجب واستغراب مماثلة من البائع، كلٌّ منهما لم يفهم الآخر، ثم تدخل بعض الحضور ممن قدّروا الموقف، وحُلّ الإشكال بأن دفع أحدهم ثمن الماء.

لم يتعرف صاحبنا على العولمة، ولا يعرف أن الترويج للمطاعم والفنادق هو إغراء وإغواء غير مجاني، بل هو جزء من العولمة التي لا يعرف صاحبنا عنها شيئا. عالم العولمة ابتعد مسافات عن عالم صاحبنا الذي تعوَّد إشعال النار عند المغيب ليهدي التائه والزائر، ويخبره أن هناك

من يرحب به ويقريه لمدة ثلاثة أيام دون أن يسأله من هو، ومن أين جاء، وماذا يريد؟

هذا وأمثاله خارج نطاق العولمة، ولن يؤمنوا بها مهما قدّمت لهم. متطلبات العولمة مشروعة لمن تعرف عليها، وهي تمتد بدءًا من الفهلوة، فالمعرفة، فالتعمق في فهم طرق الكسب ولو على حساب البسطاء، فاللف والدوران، والابتكار والإبداع، والتطوير والتحديث وسرعة التغيير،...إلخ، وآخر ما يخطر في بالها خدمة الإنسان والإنسانية بالمجان. مسافات تتسارع بين صاحبنا وأمثاله وبين العولمة، ورغم هذا البعد بين الاثنين فالقناعات قد لا تُغيّر أيًّا منهما، وسبحان مغير الأحوال.

عن التطير وأحواله

ثمة مفاهيم وانطباعات لدى العديد من المجتمعات ذات الموروثات الخرافية، ولست في موقع النافي أو المصحح لها، فالخطأ في الموروثات لا يُصحَّح بقرار يصدر عن أي جهة، وإنما بالتوعية والإقناع.

أحدث ما برز منها على السطح لدى شركة طيران عالمية تتعامل بأحدث ما توصلت إليه التكنولوجيا، هو أن الرقمين 13 و17 فأل شؤم تتطير الشركة منهما، فقد نُشر بالصحف منذ مدة قيام شركة لوفتهانزا الألمانية للطيران بإلغاء هذين الرقمين من صفوف مقاعد الركاب، وحلّ بدلا منهما الرقمان 14 و18. وإذا كان التطير من الرقم 13 جاء بناء على قناعة الشركة الألمانية، فإن التطير من الرقم 17 جاء بناء على رغبة مجموعة من ركابها البرازيليين والإيطاليين الذين طالبوا الشركة باستثناء هذا الرقم أيضا؛ كونه يعتبر أيضا فأل شؤم في مجتمعاتهم. واستكمل الخبر القول إن أحد مداخل الركاب في المطار المستخدم من قبل الشركة يحمل الرقم 13، لكن لم تبادر الشركة إلى إلغائه.

إن حالات التطير في العالم كثيرة، ولو تتبعناها لوجدنا أن بعض الشعوب تعتبر طائر البوم علامة شؤم، فيقال: «رافق البوم بدلك على الخراب»، بينما البوم عند شعوب أخرى علامة تفاؤل. وفي دول شرق آسيا يعتبر اللون الأبيض أحيانا، والأحمر أحيانا أخرى، علامة حداد. في

حين أن اللون الأبيض يمثل حالة من الصفاء والفرح في بلادنا، لذا لم نسمع أو نشاهد أن عروسا في بلادنا لبست غير الثوب الأبيض، أما اللون الأحمر فهو علامة التحدي والبأس.

نحن بدورنا نقول: إذا كانت الأمور تؤخذ بهذه البساطة، فعلى الحكومات الأردنية أن تتطير من مدة الأشهر الثلاثة أو مئة اليوم الأولى لتشكيلها. وهي المدة التي تقوم بعض المراكز الاستطلاعية باتخاذها مرجعًا لقياس مدى جاذبية الحكومة لدى المواطنين، وماذا حققت خلالها، فهي الأولى بأن تتطير وتتشاءم من هذه المدة، أو هذا الرقم، بعد أن أصبح معيارًا في حياة المجتمع الأردني.

في ظني أن عملية التطير كلها مرتبطة بتأثيرات اجتماعية وعادات غلب التكهن فيها العلم، وحافظت بعض الأساطير والعادات المتوارثة على مكانتها بالرغم من التقدم التقني والمعرفي؛ وإلا فما هي العلاقة بين مدة الأشهر الثلاثة أو الأيام المئة والحكومات الأردنية، لتوضع تحت المشرحة وتُسأل عما حققت خلالها، خاصة أن الكراسي لم تسخن بعد تحت وزرائها، ولم يستوثقوا من الطريقة المريحة للجلوس عليها.

يروى من حكايات التطير أن الرجل إذا نوى سفرًا، وصادف أن تعثر في الطريق أو سمع خبرًا أزعجه أو حدث ما لا يسرّه، فإنه يعدلُ عن السفر ويؤجّله إلى موعد آخر. إذ عرفت العرب التطيّر من قديم الزمان، وبعض

حالاته تلاشى مع الزمن، أو تناساه الناس لانشغالهم بمصاعب العصر، إذ لم يعد يسعفهم الوقت للتفكير بالتطيّر أصلًا.

في ظل حالة الجهل والتجهيل التي تمر بها الشعوب، تسود ثقافة الغول والغولة والمارد وتسيطر على أذهان الكثيرين بالتوارث، وهي ثقافة شعبية انتهت لعدم قدرتها على مجاراة العصر.

جميل برهم قموه
(2021–1941)

ولد جميل برهم طافش قموه بتاريخ 1941 في مدينة السلط.

حصل على شهادة الليسانس من جامعة دمشق سنة 1969، عمل مساعدا لمدير مطار لمدير مطار عمان المدني (1970–1973)، ومديرا للتجارة و مديرا لتشجيع الاستثمار ونائب مدير التعاون الاقتصادي في وزارة الصناعة والتجارة (1974 – 1997)، ومستشارا تجاريا في السفارة الأردنية بالقاهرة، ومدير المركز التجاري الأردني بالقاهرة (1984 – 1988).

وكان عضوا في الوفود الأردنية الرسمية المشاركة في عقد اتفاقيات اقتصادية وتجارية مع الدول العربية والأجنبية خلال العمل في وزارة الصناعة والتجارة، وعضو مجلس إدارة في عدد من المؤسسات والشركات الأردنية والعربية خلال الفترة نفسها.

وعمل محاضرا في الشأن الاقتصادي والاستثماري، وبشكل خاص في تدريب الأجيال الجديدة لدى مختلف الوزارات والهيئات المدنية.

وهو حاصل على العديد من الدورات التدريبية داخل وخارجه.

وزاول مهنة المحاماة (1997 – 2016).

وكان عضوا في رابطة الكتاب الأردنيين، وكتب المقالة الصحفية في المجالين الاقتصادي والاجتماعي والشأن العام في الصحف الأردنية منذ عام 1980.

له من المؤلفات: تجارب الزمن (2014)، آراء وتوجّهات حرّة (2014)، مفاتيح صغيرة لمواضيع كبيرة (2015)، ليت للزمان لسانًا (2019)، فلسفة خارج الإطار (2019)، مبادئ الاستثمار وتطبيقاته (2019)، الطيّبون والأشرار (2022)، حكايات برسم العولمة (2022).

https://www.facebook.com/JamilGammouh

فهرس المحتويات

مقدمة 5

لقد تغير العالم/ ميسلون قموه 12

ديك القرية..... 13

أفعى الكوبرى 15

أبي الحرامي 16

نجاح 18

نكتة الحياة..... 19

كذب مؤدلج..... 20

أكرم أباك 21

مناجاة 22

الفراشة 23

الحراثة 24

قوس قزح 26

مرايا..... 27

كتابك في يمينك 28

السرسريّ والشلايتيّ..... 29

طلب المعالي 30
العالم الجديد 31
طريق الحجّ 32
الأرض تتغزل بالقمر 34
عجائب الدنيا 35
انتخابات 36
كلب مسالم 38
الوحوش 40
حال الناس كثرة الانتقاد 42
الحمدلله رب العالمين 43
احمد الله دائمًا 44
الحرامي الجريء 45
اليقين بالحق 46
أستاذ القانون 47
وعي اللاوعي 48
خبز أمي 51
طيران العصافير 52
معزوفة المطر 53
لا تمنح الحب كلّه 55

شفّاف يخاطب معتم 56
صلاة بريئة 58
الصداقة 60
درس من الفئران 61
عيد ميلادي 62
البنت وشجرة التين 63
بائع الجرائد 64
أنا مشكول 66
السلحفاة 67
رحله افتراضيّة 68
قبل أن ينتصر أحدهما على الآخر 72
من والد الى ولده.. علمتني الحياة 81
خارج نطاق العولمة 90
عن التطير وأحواله 93